جامعة الأزهر

كلية اللغة العربية بأسيوط

المجلة العلمية

اللغة والكلام من منظور عربي وغربي

Language And Speech From An Arab And Western Perspective

إعداد

د. أحمد عبد الرحيم أحمد فراج

أستاذ أصول اللغة– بقسم أصول اللغة – كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر أسيوط

(العدد الرابع والأربعون)

(الإصدار الأول–فيراير)

(الجزء الثالث (١٤٤٦هـ /٢٠٢٥م)

الترقيم الدولي للمجلة (ISSN) *2536- 9083*

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٢٥/٦٢٧١م

اللغة والكلام من منظور عربي وغربي

أحمد عبد الرحيم أحمد فراج

قسم أصول اللغة ، كلية اللغة العربية ، أسيوط، جامعة الأزهر.

البريد الإلكتروني: *ahmed-farag.47@azhar.edu.eg*

الملخص

اللغة من أبرز المظاهر الاجتماعية ، ولها وظائف نفسية واجتماعية واقتصادية، وتكتسب من المجتمع الذي يحيط بالإنسان ، وقد مر مدلول اللغة في العربية بمراحل متعددة ، تطور فيها هذا المدلول بدءًا من إطلاقه على اللغة الخاصة أو اللهجة ، ثم تطور مدلول مصطلح اللغة على يد ابن جني ليدل على ما يرادف الكلام فهي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، ثم تطور مدلول هذا المصطلح ليدل على أن اللغة معناها مجموعة الألفاظ التي وضعت للدلالة على المعاني .

ثم تطور مفهوم اللغة في الدراسات الحديثة ليدل على مجموعة الأنظمة التي تربط بينها علاقات داخلية ، وهى ـ في هذه الحالة ـ شيء مجرد ذهني ، يظهر في عالم الحس عن طريق الكلام .

وظهر في الدراسات الحديثة اتجاه يفصل بين اللغة والكلام فصلًا بينًا ، فاللغة هي مجموعة الأنظمة التي تربط بينها علاقات داخلية ، وهى شيء مجرد في العقول والأذهان ، ومخزون في ذاكرة أبناء هذه اللغة ، وموجود بالفعل في عقولهم ، أما الكلام فهو استعمال تلك الأنظمة في الواقع أو هو اللغة في حالة الاستعمال .

ومن ثَمَّ جاءت فكرة هذا البحث الذي يشتمل على المباحث الآتية :

المبحث الأول : تكلمت فيه عن تعريف اللغة والكلام في اللغة والاصطلاح .

المبحث الثاني : وذكرت فيه آراء اللغويين العرب في اللغة والكلام من حيث الاتفاق

في استعمالهما بمعنى اصطلاحي واحد أو من حيث استعمالهما بمعنى اصطلاحي يختلف أحدهما عن الآخر .

المبحث الثالث : وتحدثت فيه عن آراء اللغويين الغربيين الذين فرقوا بين اللغة والكلام ، والذين لم يفرقوا بينهما في الاصطلاح اللغوي .

الكلمات المفتاحية : النظام اللغوي ، السلوك اللغوي ، علم لغة الكلام ، الخطاب ، الكفاءة اللغوية .

Language And Speech From An Arab And Western Perspective

Ahmed Abd El , Rahim Ahmed Farraj
Department of Linguistics , Faculty of Arabic Language , Assiut , Al-Azhar University.

Email: *ahmed-farag.47@azhar.edu.eg*

Abstract:

Language is one of the most prominent social manifestations, and it has psychological, social and economic functions, and is acquired from the society that surrounds the person. The meaning of language in Arabic has gone through several stages, in which this meaning has developed starting from its application to the private language or dialect, then the meaning of the term language developed at the hands of Ibn Jinni to indicate what is synonymous with speech, as they are sounds that each people express their purposes with, then the meaning of this term developed to indicate that language means a group of words that were put to indicate meanings.

Then the concept of language developed in modern studies to indicate a group of systems that are linked by internal relationships, and it is - in this case - something abstract mental, that appears in the world of sense through speech.

A trend has emerged in modern studies that separates language from speech, clearly, as language is a group of systems that are linked by internal relationships, and it is something abstract in the minds and intellects, and stored in the memory of the people of this language, and actually exists in their minds, while speech is the use of those systems in reality or it is language in the case of use.

Hence came the idea of this research which includes the following topics:The first topic: I talked about the definition of language and speech in language and terminology.

The second topic: I mentioned the opinions of Arab linguists on language and speech in terms of agreement in using them with one technical meaning or in terms of using them with a technical meaning that differs from one another.The third topic: I talked about the opinions of Western linguists who differentiated between language and speech, and those who did not differentiate between them in linguistic terminology.

Keywords:*Linguistic System , Linguistic Behavior , Linguistics Of Speech , Discourse , Linguistic Competence.*

المقـــدمـــــــــة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، ورحمة الله للخلق أجمعين ، وعلى آله وصحبه والتابعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

فإن اللغة من أبرز المظاهر الاجتماعية ، ولها وظائف نفسية واجتماعية واقتصادية ، وتكتسب من المجتمع الذي يحيط بالإنسان ، ويبدأ اكتساب اللغة أو تعلمها بدءًا من تعلم الأصوات المفردة ثم تركيب الأصوات لتكون كلمات ومفردات وتتكون منها الجمل والعبارات ، هذه الجمل تألف نصًا كاملًا يصلح لأن يكون خطبة أو محاضرة أو كتابًا ... إلخ .

وقد مر مدلول اللغة في العربية بمراحل متعددة ، تطور فيها هذا المدلول بدءًا من إطلاقه على اللغة الخاصة أو اللهجة ، فكانوا يقولون : لغة تميم ، ولغة قيس ، ولغة هذيل ... إلخ ، وهناك بعض الرسائل التي سميت باسم (لغات العرب) أو (لغات القبائل) ، ثم تطور مدلول مصطلح اللغة على يد ابن جني ليدل على ما يرادف الكلام فهي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، ثم تطور مدلول هذا المصطلح ليدل على أن اللغة معناها مجموعة الألفاظ التي وضعت للدلالة على المعاني ، وقامت معاجم اللغة بمحاولة حصر أو جمع مفردات اللغة وبيان المعاني التي تدل عليها عند العرب الأقحاح ، وهذا المفهوم هو المشهور والأكثر انتشارًا بين علماء العربية .

ثم تطور مفهوم اللغة في الدراسات الحديثة ليدل على مجموعة الأنظمة التي تربط بينها علاقات داخلية ، وهى ــ في هذه الحالة ــ شيء مجرد ذهني ، يظهر في عالم الحس عن طريق الكلام ، وهنا فرق بعض اللغويين بين اللغة والكلام كما سيأتي بيانه إن شاء الله .

وفي مقابل ذلك يوجد مصطلح الكلام الذي يشترك مدلوله مع مدلول اللغة في كثير من السمات والخصائص لذا استعمل مرادفًا للجُمَل عند ابن جني ، فالكلام عنده كل لفظ مستقل بنفسه ، مفيد لمعناه .

والفارق الذي يظهر بين اللغة والكلام عند علماء العربية القدامى هو أن اللغة هي تلك المفردات التي وضعت لتدل على المعاني ، أما الكلام فهو تركيب هذه المفردات لتكون جملًا وعبارات يرتبط بعضها ببعض ويكون هناك تعلق بين أجزائها ، ثم نطق هذه الجمل للتعبير عن الحاجات والأغراض ، فلا شك أن الكلام يرتبط باستعمال مفردات اللغة للتواصل بين الإنسان ونفسه في حالة التفكير أو ما يسمى بـ (المنولوج الداخلي) أو بين الإنسان وإنسان آخر أو بين الإنسان وخالقه عن طريق التضرع والابتهال والدعاء .

وهنا ثارت قضية وهى هل الكلام يرادف اللغة ؟ أو بينهما حدود فاصلة وتمايز واضح يجعل من الخلط أو الخطأ استعمالهما بمعنى واحد .

من يستقرئ آراء علماء العربية المتقدمين في هذا الشأن يجد أن أكثرهم يفرق بين اللغة والكلام في كون اللغة هي الألفاظ التي وضعت للدلالة على المعاني ، وأن الكلام هو تركيب هذه المفردات لتكون جملًا يمكن أن تستعمل في كافة أشكال التواصل ، ثم بعد ذلك تشترك اللغة والكلام في كل الخصائص اللغوية من الاعتماد على الأصوات المفردة وطريقة تكوين الصيغ والأبنية ، وتأليف الجمل بما يتفق والقواعد التي تنظم ضم الكلمات بعضها إلى بعض ، وكذلك مراعاة مقتضى الحال في أثناء عملية التواصل .

أما في الدراسات الحديثة فقد ظهر اتجاه يفصل بين اللغة والكلام فصلًا بينًا ، فاللغة هي مجموعة الأنظمة التي تربط بينها علاقات داخلية ، وهى شيء مجرد في العقول والأذهان ، ومخزون في ذاكرة أبناء هذه اللغة ، وموجود بالفعل في عقولهم ، أما الكلام فهو استعمال تلك الأنظمة في الواقع أو هو اللغة في حالة الاستعمال ،

فالكلام سلوك واللغة معايير هذا السلوك والكلام يحس بالسمع نطقًا والبصر كتابة واللغة تفهم بالتأمل في الكلام كما يقول د / تمام حسان .

لكن المتأمل في الفروق بين اللغة والكلام يجدها غير فاصلة ولا تصنع فوارق جوهرية بين المصطلحين فكلاهما فردي باعتبار وكلاهما جماعي باعتبار آخر ، وكلاهما عقلي باعتبار ، وكلاهما اجتماعي باعتبار آخر ، ومن ذلك يتبين أن الفروق التي وضعها دي سوسير للفرق بين اللغة والكلام ليست بذات قيمة مؤثرة في مفهوم المصطلحين ، وأنه تأثر في وضع هذه الفروق بعلماء الاجتماع الذين يفرقون بين ما هو فردي وما هو جماعي ، أما من المنظور اللغوي فهما وجهان لعملة واحدة ولا يمكن أن يستقل أحدهما بالتصور من دون الآخر ، ومن ثَمَّ جاءت فكرة هذا البحث الذي يشتمل على المباحث الآتية :

المبحث الأول : تكلمت فيه عن تعريف اللغة والكلام في اللغة والاصطلاح .

المبحث الثاني : وذكرت فيه آراء اللغويين العرب في اللغة والكلام من حيث الاتفاق في استعمالهما بمعنى اصطلاحي واحد أو من حيث استعمالهما بمعنى اصطلاحي يختلف أحدهما عن الآخر .

المبحث الثالث : وتحدثت فيه عن آراء اللغويين الغربيين الذين فرقوا بين اللغة والكلام ، والذين لم يفرقوا بينهما في الاصطلاح اللغوي .

وقد سبقت هذه المباحث مقدمة تحدثت فيها عن أهمية الموضوع ، وخطة الدراسة ، ثم تلت المقدمةَ خاتمةٌ تناولت فيها أبرز النتائج التي أسفرت عنها هذه الدراسة ، والله أسأل أن يجعل عملي خالصًا لوجهه الكريم وذخرًا لي عنده يوم الدين، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ...

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله تبارك وتعالى على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

المبحث الأول

تعريف اللغـــة والكـــــلام

ثار جدل كبير بين اللغويين بعدما فصل وفرق دي سوسير بين اللغة ــ بمعنى اللغة المعينة كالعربية والفرنسية ــ والكلام ؛ وذلك لأن بعض اللغويين أيد رأي دي سوسير وقال بأن اللغة هي التي تخضع للبحث والدراسة وتدخل في نطاق علم اللغة ، أما الكلام فهو أمر فردي ومتغير ولا يخضع للقواعد التي تسير عليها اللغات ولا يدخل في مجال علم اللغة إلا بقدر ما يوضح ويبين الضوابط العامة للغة .

وذهب فريق آخر إلى أن اللغة والكلام هما وجهان لعملة واحدة ولا يمكن التفريق بينهما ، وكلاهما يشتمل على علاقات تترابط وتتماسك ؛ ولذا يمكن أن يدخل الكلام في مجال علم اللغة ويمكن أن يكون موضع نظر الباحث اللغوي ، بل هو الذي يصلح للبحث والدراسة دون اللغة المجردة عند أصحاب هذا الرأي .

وقبل الغوص في آراء اللغويين بين مؤيد ومعارض لوجود فرق بين اللغة والكلام أو عدمه تجدر الإشارة إلى تعريف اللغة والكلام تعريفًا يكشف عن حقيقة كل منهما ، ويمكن بيان ذلك فيما يلي :

مجهولات الإنسان كثيرة ، وإذا جهل الإنسان شيئًا وأراد أن يعرفه ، فأول شيء يخطر بباله هو ماهية ذلك الشيء أو ما هو ذلك الشيء ؟ فإذا حصل له تعريف ذلك الشيء حصل له تصوره في الذهن ، وقديمًا قالوا : الحكم على الشيء فرع عن تصوره .

والبحث عن الشيء يقتضي تعريفه أولًا ثم يتم تناول مسائله بعد ذلك ، والتعريف مهم جدًا لكل مصطلح من المصطلحات ؛ وأول المجهولات التي ينبغي أن يعرفها الإنسان هو المعنى اللغوي لتلك الكلمة أو المصطلح حتى يتحدد ويعرف من غيره من المعلومات ، وإذا كان الحديث عن اللغة فأول ما يسأل عنه هو قولهم : ما اللغة ؟

وقبل الحديث عن تعريف اللغة ، فلا بد من معرفة المأخذ الاشتقاقي الذي أخذت منه تلك الكلمة، وقد تعدد المأخذ الاشتقاقي لكلمة لغة، وذلك يرجع لأمرين:

أحدهما : أن الكلمة بها حذف فهي إما أن تكون مأخوذة من الفعل : لغا يَلْغُو بمعنى تكلم، وعلى هذا فأصل كلمة لغة لُغْوَة على وزن فُعْلَة، يقول الأزهري:" واللغة من الأسماء الناقصة ، وأصلها لُغْوَةٌ ، من لغا إذا تكلم " [١] ، ثم حذفت الواو ونقلت حركتها إلى الساكن الصحيح قبلها فصارت لغة على وزن فُعَة ، يقول ابن جني : " أما تصريفها ومعرفة حروفها فإنها فُعْلَة من لَغَوتُ أي : تكلمتُ ، وأصلها لُغْوة ككُرَة وثُبَة كلها لاماتها واوات "[٢] .

وقيل : إن أصل (لغة) لُغَيٌ والهاء عوض عن الياء ، وعلى الرأي القائل بأن أصلها لُغَىٌ يكون أصل كلمة لغة : لُغْيَة من لَغِى يَلْغى بمعنى : هذى ، والمصدر اللغا، ثم حذفت الياء ونقلت حركتها إلى الساكن الصحيح قبلها فصارت لُغَة على وزن فُعَة ، يقول الراغب : " ولَغِى بكذا أي : لَهِجَ به ، لَهَجَ العُصفور بلغاهُ أي : بصوته ، ومنه قيل للكلام الذي يَلْهَجُ به فِرْقَةٌ (فِرْقَة) [٣] لُغَةٌ " [٤] .

وقيل : إن كلمة (لغة) مشتقة من لَغِى ـ بكسر الغين ـ يَلْغَى ـ من باب رَضِى : إذا لَهَجَ بالكلام ، وقيل : من لَغَى ـ بفتح الغين ـ يَلْغَى[٥]

الآخر : التطور الدلالي الذي حدث للفظ ، فمن قال بأن كلمة (لغة) مأخوذة من لغا يَلْغُو بمعنى : تكلم جعل معناها الكلام ، فاللغة على هذا : اسم ثلاثي على وزن فُعَة،

---

(١) تهذيب اللغة ٨ / ١٨٩ (لغا) .
(٢) الخصائص ١ / ٣٣ .
(٣) هكذا في الأصل .
(٤) المفردات ص ٤٧٢ .
(٥) ينظر : المزهر ١ / ٨ .

أصله : لُغْوَة على وزن فُعْلة، فحذفت لامه ، وهو من الفعل الثلاثي المتعدّي بحرف: لغا بكذا، أي تكلم ، يقول ابن جني : " وفي الحديث : " من قال في الجمعة : صه فقد لغا "[1] أي : تكلم "[2] .

ومن قال بأن كلمة (لغة) مأخوذة من لغا يلغو بمعنى أخطأ جعل معناها الخطأ أو الفحش أو الباطل ، يقال : لَغَا في القول يَلْغُو ويَلْغَى لغوًا إذا أخطأ وقال باطلاً .

والرأي الأول هو الراجح والغالب وهو الذي استقرت عليه الدلالة في استعمال تلك الكلمة ، ثم نقلت إلى الاصطلاح اللغوي .

ويمكن الجمع بين الرأيين السابقين وذلك بأن يكون معنى لغا يلغو أي : صوَّت ، سواء أكان ذلك التصويت تكلمًا بكلام مفيد أم كان تكلمًا بخطأ و باطل أم كان تكلمًا بالصوت الذي ليس له معنى، يقال : لغا الطائر يلغو لغوًا إذا صوَّت، ولغو الطائر تصويته ، ومنه قول الشاعر :

ورُبَّ أســـــرابِ حَجِـــــيْجٍ كُظَّـــــمِ عـــــن اللّغَـــــا ورَفَـــــثِ الـــــتَّكلُّمِ[3]

وقد أشار أستاذنا الدكتور / جبل إلى أن الاستعمال الأقدم لاشتقاق كلمة لغة يدل على إصدار الأصوات لغطًا وتشويهًا ، ثم إصدار الكلام غير المقصود ، ثم الكلام الذي ليس له وزن أو قيمـــة وقال : " كل ذلك يؤسس ويؤصل لوجـود كلمـــة (لغة) في ذلك الوقت المبكر بمعنى اللهجة أو اللسان العام، بالإضافة إلى الشواهد النصية ؛ لأن اللغة أبرز مظاهرها على الإطلاق أنها أصوات يتبادل إصدارها الناس

---

(١) الحديث في البخاري برواية : " إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت ـ والإمام يخطب ـ فقد لغوت " ١ / ٢٢٥ حديث رقم (٩٣٤) .

(٢) الخصائص ١ / ٣٤ ، والمزهر ١ / ٧ .

(٣) رجز نسب لرؤبة بن العجاج في المحكم ٦ / ٤٠ (ل غ و) .

للتفاهم بها ، وتطور دلالة الفعل ـ أو الاسم ـ من الأصوات غير ذات القيمة أو المعنى المقصود (كأصوات الطيور) إلى الأصوات التي تتبادل قصدًا للتفاهم بها هي خطوة قريبة لها نظائرها في تطور الدلالة جِد كثيرة " [١].

ولما تقارب أو تشابه هذا اللفظ مع اللفظ اليوناني القديم (لوغوس) ، فقد ذهب أحد الباحثين إلى القول بأن هذا اللفظ مأخوذ من الأصل اليوناني ، وأنه لا يوجد شاهد واحد يدل على أن العرب الجاهليين قد استعملوا هذا اللفظ بهذا المعنى الاصطلاحي المعروف به ، وقال : " والغريب في لفظة (لغة) أنها لم ترد مستعملة في كلام عربي يعتد به ، وإنما كانت العرب تسمي مجرد الضوضاء التي لا طائل من ورائها لغوًا ، وجاء من ذلك الفعل أَلْغَى يُلْغِي ، بمعنى أبطل ، أي : اعتبر ذلك لغوًا ، ولذلك فقد اختلف في اشتقاقها ، وحار بعض الأعراب في جمعها ... فالعرب الخلص لم يكونوا يستعملون كلمة لغة في كلامهم ، وإنما كانوا كغيرهم من الأمم السامية ، بل كأكثر أمم الدنيا يستعملون كلمة لسان للدلالة على اللغة ... وإننا ونحن لا نجد شاهدًا واحدًا على استعمال العرب لكلمة لغة بهذا المعنى العلمي الذي نعنيه ، ونظرًا لما بدا من اضطراب اللغويين في اشتقاقها وتردد العرب في ضبط جمعها لَنميل إلى القول بأنها من أصل يوناني هو كلمة (لوغوس : logos) التي معناها الأصلي (كلمة) و(كلام) ... لكن متى دخلت هذه الكلمة إلى اللغة العربية ؟ لا ندري ، ومن المحتمل أنها جرت على الألسنة بين بعض قبائل العرب حتى قبل الإسلام ، ولكنها لم تكن إذ ذاك في أسماعهم من النبل والطنين بحيث تستحق أن تستعمل في الشعر أو الخطب أو غيرها من فنون القول الاحتفالي الذي كان العرب يدققون في انتقاء الألفاظ له ، ومهما يكن من شيء فنحن لا نقول ذلك لنطرد لفظة (لغة) من

---

(١) علم فقه اللغة ص ٧٩ .

اللغة، وإنما هي ملاحظة كان ينبغي أن يقف عليها الباحث فيما يتصل باللغة " [1] .

أقول : إن استعمال كلمة (لغة) بمعنى الألفاظ الموضوعة للمعاني ــ وهكذا كان يفهمها جل اللغويين العرب ــ لم تكن مستعملة بهذا المعنى قبل الإسلام ، وهو ما أشار إليه الباحث في قوله : " وإننا ونحن لا نجد شاهدًا واحدًا على استعمال العرب لكلمة لغة بهذا المعنى العلمي الذي نعنيه " فلم تكن المصطلحات قد وضعت بعد ، بل لم تكن العلوم اللغوية قد أسست فأنى تكون هذه المعاني التي لم توضع بعد ، أما في صدر الإسلام فقد وردت بعض الشواهد التي جاءت فيها كلمة (لغة) بمعنى الألفاظ المستعملة والموضوعة للمعاني ، وبذلك المعنى كان يفهمها القدامى ، ومن ذلك ما روى عن عبد الله بن بُرَيْدَة الأسلمي عن أبيه عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : يا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : مالكَ أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرِنا ؟ قال : كانت لغةُ إسماعيل قد دَرَسَتْ فجاء بها جبريل ــ عليه السلام ــ فحفَّظَنِيها فحفظتُها " أخرجه ابن عساكر في تاريخه [2] ، فلغة إسماعيل أي : الألفاظ والكلمات التي نطق بها وتكلمها ، وبما أن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ــ كان يتكلم بالألفاظ العربية الصريحة فإن لغة إسماعيل هي اللغة العربية الصريحة ، فكيف يقال بعد ذلك: " فالعرب الخلص لم يكونوا يستعملون كلمة لغة في كلامهم " ؟ .

ويضاف إلى ذلك أنه لا شك في وجود المأخذ الاشتقاقي الذي اشتقت منه كلمة (لغة) وهذا يدل على عربيتها وأصالتها في لغة العرب ، " وبناء على ذلك لا يقبل القول الذي ذهب إليه بعض المحدثين من أن كلمة لغة دخيلة على العربية ، وأنها معربة من كلمة (logos) الإغريقية التي تعني كلمة أو فكرة ، ويعزز ذلك عندهم

---

(١) اللسان والإنسان ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ .

(٢) المزهر ١ / ٣٥ .

التشابه بين الكلمتين " [١] .

ولا يلزم من تقارب اللفظين أن يكون أحدهما أصلًا للآخر ، وقد وجدتُ في أشعار من يحتج بشعرهم ذكرًا لكلمة (لغات) وهى جمع لغة ؛ حيث جاءت في قول ذي الرمة (ت ١١٧ هـ) :

مــن الطنــابير يَزْهــى صــوتَه ثَمِــلٌ فــي لحنــه عن لغات العُرْبِ تَعْجِيمُ[٢]

ومن النثر قولهم : " سمعت لغاتَهم ، روى ذلك عن الكسائي " [٣] .

المعنى اللغوي لكلمة لغة :

مجمل آراء اللغويين في المعنى اللغوي الذي أخذت منه كلمة لغة ترجع إلى أمرين ، أحدهما : التكلم ، والآخر : أصوات غير البشر من الطيور والحيوانات ، ويمكن بيان ذلك فيما يلي :

أ ــ لغا يلغو بمعنى تكلم :

المعنى الغالب في استعمال لغا يَلْغُو أنه يكون في الباطل أو الخطأ أو الفُحْش ، ثم تطور هذا المعنى ليدل على التكلم مطلقًا سواء أكان صحيحًا أم خطأ ، ويتبين ذلك مما يلي :

١ ــ ذهب بعض اللغويين إلى أن لغا يلغو لغواً معناه : تكلم بكلام باطل أو خطأ ، يقال : لَغَا في القول يَلْغُو ويَلْغَى لغوًا إذا أخطأ وقال باطلاً .

٢ ــ وقيل : لغا يلغو إذا تكلم بكلام فاحش، ومنه كلمة لاغية أي : فاحشة ، وعليه

---

(١) اللهجات العربية نشأة وتطورًا ص ٢٣ .

(٢) الديوان ص ٢٥٧ .

(٣) ينظر : المحكم ٦ / ٤٠ (ل غ و) .

يحمل قـوله تعالى في التنزيل العزيز: ﴿ لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ﴿١١﴾ ﴾ [1] ، أي كلمة قبيحة أو فاحشة .

٣ ــ اللغو واللَّغا : السَّقَط وما لا يعتد بـه من كـلام ، ولا يحصل منـه على فائدة ولا نفع .

٤ ــ اللغو و اللَّغا و اللَّغْوَى : ما كان من الكلام غير معقود عليه ومنـه قولـه تعالى فـــي كتابـــه الكـــريم : ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿٢٢٥﴾ ﴾ [2]، واللغو في الأيمان ما لا يعقد عليه القلب .

٥ ــ ذهب بعض اللغويين إلى أن لغا يَلْغُو لَغْوًا معناه : تكلم مطلقاً سواء أكان بكلام صحيح أم باطل ، وسواء أكان الكلام حسناً أم فاحشًا ، يقال : لغا يلغو لغوًا : تكلم ، فاللغة على هذا : اسم ثلاثي على وزن فُعة، أصله لُغْوَة على وزن فُعْلة، فحذفت لامه، وهو من الفعل الثلاثي المتعدّي بحرف: لغا بكذا، أي : تكلم .

ب ــ اللغو واللغا في غير الكلام :

١ ــ اللغو أو اللغا بمعنى صوت الطائر ، ومنه قول رؤبة بن العجاج :

ورُبَّ أســـــرابِ حَجِـــــيْجٍ كُظَّـــــمِ عـــــن اللّغَـــا ورَفَـــثِ الـــتَّكلُّمِ[3]

وذهب د / جبل إلى أن هذا المعنى هو أقدم المعاني وآصلها ، قال : " إن هذا المعنى (أصوات ليس لها قيمـة تقصـد) كأصـوات الطيـور ، هو المعنى الآصل للجـذر (لغو/ ى) ومنه أخذ التعبير عن الأصوات البشرية الخالية من القيمة ، ثم

---

(١) الغاشية الآية / ١١ .

(٢) البقرة الآية / ٢٢٥ .

(٣) ينظر : المحكم ٦ / ٤٠ (ل غ و) .

عن الأصوات البشرية التي تتبادل للتفاهم ، أي : بإسقاط قيد الخلو من القيمة التي تقصد "[١].

٢ ـ قد يستعمل اللغو بمعنى مالا يعتد به من أولاد الإبل ، ومنه قول ذي الرمة :

يَعُـــدُّ الناســـبون إلـــى تميـــم بيـــوت العـــز أربعـــة كبـــارا

ويهلـــك بينهـــا المرئـــيُّ لغـــوًا كمـــا أَلغيْـــتَ فـــي الديـــة الحُـــورا[٢]

ومن ذلك يتبين اتساع المجال الدلالي الذي استعملت فيه كلمة لغة ، وأكثر هذه المعاني يرجع إلى التكلم أو التصويت .

تطور مدلول مصطلح اللغة :

إن بواكير استعمال مصطلح (لغة) ارتبطت بالدلالة على اللهجة أو اللغة التي يتكلم بها أفراد المجتمع في بيئة من البيئات أو في مجتمع من المجتمعات ، وهى دلالة مستنبطة من الإطلاق أو الاستعمال ولكنها خلت من التعريف بالحد الذي يحدد الأشياء بتعريف جامع مانع بمعنى جامع لكل مفرداته ومانع لدخول غيره فيه كما يقول المناطقة .

وإننا لنجد ذلك في عنوانات بعض الرسائل (الكتب) ، حيث كانوا يستخدمون مصطلح اللغة وهم يعنون به اللهجة ، ومن ذلك (كتاب اللغات) ليونس بن حبيب أبي عبد الرحمن الضبي النحوي المتوفي سنة ١٨٢هـ ، و(كتاب اللغات) للفراء يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الدليمي المتوفي سنة ٢٠٧ هـ ، و(كتاب اللغات) لأبي عبيدة معمر بن المثنى التميمي البصري المتوفي سنة ٢٠٩ هـ ، و(كتاب اللغات) للأصمعي عبد الملك بن قُرَيْب بن قيس عيلان المتوفي سنة ٢١٢ هـ

---

(١) علم فقه اللغة ص ٨٤ .

(٢) البيتان من الوافر في ديوانه ص ٩٧ .

و(كتاب اللغات) لأبي زيد الأنصاري سعيد بن أوس بن ثابت المتوفي سنة ٢١٥هـ ، و(كتاب في لغات القرآن) لأبي زيد الأنصاري ـ أيضًا ـ ، و(كتاب اللغات) لابن دريد أبي بكر محمد بن الحسن المتوفي سنة ٣٢١هـ ، و (ما ورد في القرآن من لغات القبائل) لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي المتوفي سنة ٢٢٤هـ ، وكتاب (اللغات في القرآن الكريم) رواية إسماعيل بن عمرو بن حسنون المقرئ المتوفي سنة ٤٢٩ هـ ، و (كتاب اللغات) لابن بري عبد الله بن عبد الجبار النحوي اللغوي المتوفي سنة ٥٨٢ هـ .

وإذا نظرنا إلى أقدم رسالة ـ على حد علمي ـ سميت باسم (كتاب اللغات) وهى ليونس بن حبيب الضبي (ت ١٨٢ هـ) ، يتبين أن بداية استعمال هذا اللفظ في المؤلفات اللغوية كانت بعد المائة من الهجرة .

ثم تطور مدلول اللغة ليدل على وضع الألفاظ للمعاني ، يقول ابن الحاجب : " حد اللغة كل لفظ وضع لمعنى " [(١)] ، ويقول الأسنوي : " اللغات عبارة عن الألفاظ الموضوعة للمعاني " [(٢)] ، وبهذا المعنى عَرَفَها وعرَّفها النحويون .

ولم يختلف رأي علماء البلاغة كثيرًا عن رأي النحويين ، حيث إن اللغة عندهم هي الألفاظ التي وضعت لتدل على المعاني ، ، ومن ذلك يتبين أن علماء البلاغة ـــ كالنحويين ـــ ينظرون إلى اللغة على أنها الألفاظ المفردة ، التي تدل على معانٍ مفرد ، فقد ذكر ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ) فصلًا في كتابه (سر الفصاحة) جعله بعنوان " فصل في اللغة " ، وعرف اللغة بقوله : " اللغة عبارة عما يتواضع القوم عليه من الكلام أو يكون توقيفًا " وضرب لذلك مثالًا بقوله : " يقال في لغة العرب : إن السيف القاطع حسام ، أي : تواضعوا على أن سموه هذا

---

(١) المزهر ١/ ٨ .

(٢) المزهر ١ / ٨ .

الاسم " [١] .

وهو قد ذكر المواضعة والتوقيف لكنه مال إلى أن اللغة نشأت عن طريق المواضعة والاصطلاح .

وقريب من هذه التعريفات ما ذكره الزبيدي في تعريف اللغة فقال : " الكلام المصطلح عليه بين كل قبيل " [٢] ، وهو هنا لم يفرق بين اللغة و الكلام ، فاللغة عنده كلام ، لكنه ليس مطلق كلام بل هو كلام اصطلح عليه الناس في بيئة معينة وفي قبيلة محددة ، والكلام يشير إلى الألفاظ والاصطلاح يشير إلى المعاني ، وأضاف العنصر الاجتماعي فقال : " بين كل قبيل " .

وهذه التعريفات اقتصرت على شيئين وهما الألفاظ والمعاني دون إشارة إلى جمع أو تصنيف أو تأليف أو دراسة ، فما تواضع عليه الناس وهو أسماء الأشياء والأحداث والأدوات هي التي تسمى لغة ، هذه اللغة ينطق بمقتضاها الإنسان وفق ما حصله منها ويكوِّن منها جملًا وعبارات ونصوصًا وبذلك تصير اللغة كلامًا .

ثم تطور مدلول مصطلح (لغة) ليطلق على الألفاظ الموضوعة للمعاني مرتبة ومشروحة ، والمشتغل بجمع تلك المفردات وترتيبها وتصنيفها وبيان معانيها هو اللغوي دون غيره من المشتغلين بجوانب أخرى من جوانب اللغة ، يقول د / محمود فهمي حجازي : " أطلق المؤلفون العرب على الاشتغال بالمفردات اللغوية جمعًا وتأليفًا عدة مصطلحات أقدمها مصطلح " اللغة " ، لقد وصف أبو الطيب اللغوي (ت ٣٥١ هـ) أبا زيد والأصمعي وأبا عبيدة وقارنهم من جانب معرفتهم باللغة " كان أبو زيد أحفظ الناس للغة ، وكان الأصمعي يجيب في ثلث اللغة ، وكان أبو عبيدة يجيب

---

(١) سر الفصاحة ص ٢٣ .

(٢) تاج العروس ٣٩ / ٤٦٢ (لغا) .

في نصفها ، وكان أبو مالك يجيب فيها كلها ، والمقصود هنا بكلمة اللغة مجموع المفردات ومعرفة دلالاتها ، وبهذا المعنى كانت كتب الطبقات تميز بين المشتغلين بالنحو أو العربية من جانب والمشتغلين باللغة من جانب آخر ؛ لذا عد سيبويه والمبرد من النحاة بينما عد الأصمعي وأقرانه من اللغويين ، وقد ظل استخدام كلمة (لغة) بهذا المعنى عدة قرون ، وأصبح اللغوي هو الباحث في المفردات جمعًا وتصنيفًا وتأليفًا "[1] .

ثم تحدد وتخصص معنى اللغة فأصبح يدل على جمع أكبر قدر ممكن من ألفاظ اللغة في كتاب ، أو جمع معظم ألفاظ اللغة في معجم ، واللغوي هو من يقوم بجمع تلك الألفاظ وبيان معانيها ويرتبها ترتيبًا يسهل الوصول إلى تلك الكلمة ومعرفة معناها ، وقد أشار د / عبده الراجحي إلى هذا المعنى فقال : " أما اللغة فكانوا يطلقونها على العلم الذي يختص بجمع الألفاظ اللغوية ودراستها ، وينسب إليها فيقال : لغوي ، وهو العالم الذي يعرف قدرًا كبيرًا من ألفاظ اللغة وعلى الأخص الألفاظ الغريبة منها ، أو هو التخصص في إخراج المعاجم اللغوية " [2] .

وقد امتد استعمال كلمة لغة بمعنى وضع ألفاظ اللغة في معجم لعدة قرون متوالية، " فالأصمعي لغوي لأنه جمع ألفاظ البدو وسجلها في رسائل لغوية مصنفة في موضوعات دلالية ، والخليل لغوي لأنه أول من حاول حصر الألفاظ العربية وتسجيلها في معجم ، وابن دريد لغوي ـ أيضًا ـ ؛ لأنه ألف معجمه (جمهرة اللغة) ، والأزهري لغوي لأنه ألف معجمه (تهذيب اللغة) ، وظل استخدام كلمة " لغة " بمعنى بحث المفردات وتصنيفها في معاجم وكتب موضوعية سائدًا في الدوائر العلمية

---

(١) علم اللغة العربية ص ٦٥ .

(٢) فقه اللغة في كتب العربية ص ٣٧ .

عدة قرون " [١] .

يتبين مما سبق أن اللغة معناها دراسة الألفاظ وتصنيفها وبيان معانيها ، فأضافت تلك التعريفات عنصر البحث والدراسة للمفردات وبيان معانيها وغريبها .

ثم أضيفت إلى كلمة لغة كلمةٌ أخرى وهى كلمة (علم) فصار المصطلح (علم اللغة) [٢] ، يقول العلامة السجاعي: " والعربية منسوبة للعرب وهى : علم يحترز به عن الخلل في كلام العرب ، وهو بهذا المعنى يشمل اثني عشر علمًا جمعها بعض أصحابنا في قوله :

صرف بيان معاني النحو قافية شعر عروض اشتقاق الخط إنشاء

---

(١) علم اللغة العربية ص ٦٥ .

(٢) ترادف مع هذا المصطلح عدة مصطلحات في بيئتنا العربية ومنها : اللغويات ، و علم اللسان ، واللسانيات ، وعلم الألسن ، والألسنية ، والألسنيات ...

لكن يؤخذ على مصطلح اللغويات أنه لا يشير إلى العلم في دراسة اللغة المفهومة من مصطلح (علم اللغة) الذي يدل على دراسة اللغة دراسة علمية ، ويؤخذ على المصطلحات التي تتعلق باللسان بعض المآخذ ومنها :

أولًا : أنها تشير إلى الجانب الشكلي أو البراني المتعلق بالكلام والنطق والأداء وهو ما استبعده دي سوسير من المجال العلمي لدراسة اللغة .

ثانيًا : هناك تجوز وتسمح في استعمال هذا المصطلح حيث إنه يشير إلى الشيء باسم آلته ، والمصطلحات العلمية ينبغي أن تكون خالصة من المجازات ومبرأة من الاستعمالات التي تبعدها عن حقائق العلم وطبيعته .

ثالثًا : جمع اللسان جمع تكسير في ألسن ثم جمعه جمع مؤنث سالم على ألسنيات فيه شذوذ أو غرابة بالنسبة للقاعدة الصرفية .

ينظر في علم اللغة العام د / عبد العزيز أحمد علام القسم الأول ص ١١ ، و ١٢ ، والتفكير اللغوي بين القديم والجديد د / كمال بشر ص ٦٢ وما بعدها .

محاضـــرات وتـــأتي عشـــرها لغـــــة تلـك العلـــوم لهـــا الآداب أسمـــــاء[1]

وهو هنا يشير إلى أن هذه العلوم قد يقال لها ـ أيضًا ـ علوم الأدب ، وقد أشار إلى ذلك ـ أيضًا ـ الجاربردي في حاشيته على الشافية فقال : " وعلوم الأدب : علوم يحترز بها عن الخلل في كلام العرب ، لفظًا أو كتابة وهى على ما صرحوا به اثنا عشر منها أصول وهى العمدة في ذلك الاحتراز ، ومنها فروع ، أما الأصول فالبحث فيها إما عن المفردات من حيث جواهرها وموادها فعلم اللغة ، أو من حيث صورها وهيأتها فعلم التصريف ، أو من حيث انتساب بعضها إلى بعض بالأصالة والفرعية فعلم الاشتقاق ، وإما عن المركبات على الإطلاق فإما باعتبار هيأتها التركيبية وتأديها لمعانيها الأصلية فعلم النحو ، أو باعتبار إفادتها لمعان مغايرة لأصل المعنى فعلم المعاني ، أو باعتبار كيفية تلك الإفادة في مراتب الوضوح فعلم البيان ، وأما عن المركبات الموزونة فإما من حيث وزنها فعلم العروض أو من حيث أواخر أبياتها فعلم القافية ، وأما الفروع فالبحث فيها إما عن يتعلق بنقوش الكتابة فعلم الخط أو يختص بالمنظوم فالعلم المسمى بقرض الشعر أو بالمنثور فعلم إنشاء النثر من الرسائل والخطب أو لا يختص بشيء منها فعلم المحاضرات ومنه التواريخ " [2] .

يفهم من ذلك أن علم اللغة كان يعني في تلك الحقبة جمع مفردات اللغة وبيان معانيها ومعرفة اشتقاقها فهو يدرس الألفاظ المفردة من غير تركيب أو تأليف .

ومصطلح (علم اللغة) هو المصطلح الذي استعمله ابن خلدون عندما قال : " علم اللغة : هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية ، وذلك أنه لما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب ، واستنبطت القوانين

---

(١) البيتان من البسيط ، ينظر : حاشية السجاعي على قطر الندى وبل الصدى للعلامة أحمد بن أحمد السجاعي (ت ١١٩٧هـ) ص ٧ .

(٢) مجموعة الشافية من علمي الصرف والخط للعلامة الجاربردي ١ / ٦ .

لحفظها ... ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم ومخالطتهم ، حتى تأدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ ، فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضعه عندهم ميلًا مع هجنة المستعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية ، فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس ، وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث ، فشمر كثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين ، وكان سابق الحلبة في ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي ، ألف فيها كتاب العين ... " [١] .

فبيان الموضوعات اللغوية معناه : بيان معاني الألفاظ التي وضعت لتدل على المعاني وطريقة ضبط المشتبه من تلك الألفاظ وبيان أصولها التي اشتقت منها ، ولا شك أن ذلك يختص باللغة العربية .

ثم تطور مصطلح (علم اللغة) ليدل على دراسة اللغة الإنسانية أو الملكة اللسانية من غير تحديد لغة معينة ، يقول د / رمضان عبد التواب : " أما علم اللغة (Linguistics) ويطلق عليه أحيانًا اسم : علم اللغة العام (Linguistics General) فقد دخل بعض الجامعات العربية حديثًا ، وتعالج فيه عادة قضايا اللغة ، مجردة عن الارتباط بأية لغة من اللغات ، فاللغة التي يبحث فيها هذا العلم ، ليست هي اللغة العربية ، أو الإنجليزية ، أو الألمانية ، وإنما هي اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها كما يقول دي سوسير " [٢] .

وهنا مصطلحان متداخلان متشابكان وهما مصطلح علم اللغة ومصطلح علوم اللغة[٣] ، ومما سبق يتبين أن علم اللغة هو أحد علوم اللغة أو ما يسمى علوم الأدب ، لكن د / حسن ظاظا فرق بين المصطلحين فجعل علوم اللغة وهى : النحو

---

(١) المقدمة ٢ / ٣٧٠ .

(٢) فصول في فقه اللغة ص ١١ .

(٣) ظهر هذا المصطلح عند السيوطي في كتابه : (المزهر في علوم اللغة وأنواعها) .

والصرف والعروض ، من العلوم التنظيمية التي تعتمد على القواعد والقوانين ، وجعل علم اللغة أو فقه اللغة من العلوم التفسيرية الفلسفية ، فقال : " فعلوم اللغة هي العلوم الموازين ، الحاوية للقواعد والقوانين التي تبين الخطأ من الصواب ، أما علم اللغة وفقه اللغة فهما من المباحث التفسيرية الفلسفية الوصفية ، التي تنبني في الأغلب على إثارة معادن المعاني ، أي : درس العلاقة القائمة بين الفكر والتعبير ، وتقرير حال الأوضاع والمبادئ ، أي : درس التطور التاريخي للغة ، وكيف سرت أحكامها في الأنحاء والحواشي ، أي : الاستقراء للظاهرة اللغوية خلال النصوص ومقارنة الظواهر بعضها ببعض " [١] .

وقد شهد مصطلح (اللغة) تطورًا مهمًا على يد العلامة أبي الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢ هـ) ــ الذي أضفى على مصطلح اللغة بعض السمات التي لم نجدها عند معاصريه من علماء العربية القدامى، وذلك عندما عرف اللغة بقوله : " وحدها : أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم " [٢] ، وأشار إلى عنصرين بارزين من عناصر اللغة وهما : كون اللغة اجتماعية (يعبر بها كل قوم) ، بل هي من أبرز المظاهر الاجتماعية ، ولا يمكن أن نجد مجتمعًا من دون لغة ، ثم كون اللغة تعبر عن أغراض وتؤدي بعض الوظائف ، وهذا العنصران اللذان ذكرهما ابن جني مما اتكأ عليه اللغويون المحدثون في تعريف اللغة واعترفوا بصحة هذا الملحظ في التعريف وأشادوا بدقة تعريف ابن جني واختصاره ، فالأصوات هي الرموز التي تركب وتتكون منها البنية أو الكلمة أو الصيغة ، ثم تركب الكلمات مكونة جملًا وعبارات ثم تركب الجمل ويتكون منها نص يصلح لأن يكون رسالة لغوية : كتابًا ، أو خطبة ... إلخ ، هذه المكونات حتى تظهر للوجود لا بد لها من منشئ أو مرسل

---

(١) اللسان والإنسان ص ٤٤ .

(٢) الخصائص ١ / ٣٤ .

أو كاتب ، وهو ما يفهم من قول ابن جني : " يعبر بها كل قوم " ، وبطبيعة الحال هذا المرسل يقتضي مرسلًا إليه أو قارئًا تصل إليه هذه المكونات لغرض من الأغراض أو لهدف من الأهداف .

هذا التحليل لهذا التعريف لا يمكن أن نفهم منه أن ابن جني فصل أو فرق بين اللغة والكلام ، بل هو تعريف للكلام أكثر من كونه تعريفًا للغة ، يقول د / تمام حسان : " وأما رأي ابن جني في اللغة فهو أنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم وهذا في الواقع تعرف للكلام لا للغة " (١).

وهذا التعريف الذي قدمه ابن جني للغة يقترب من التعريف الذي قدمه أرسطو للكلام، " حيث يرى أن الكلام نتاج صوتي مصحوب بعمل الخيال من أجل أن يكون التعبير صوتًا له معنى " (٢) .

وبناء على هذه النظرة التي ذكرها ابن جني للغة نجد أن بعض التفسيرات التي فُسِّرَتْ بها اللغة تنص صراحة على حالة الاستعمال أو الكلام ، ومن ذلك قولهم : " اللُّغَة : اللَّسْنُ ، وحدها أنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، ... وهو الكلام المصطلح عليه بين كل قبيل " (٣) ، وقد بين الزبيدي معنى اللَّسن بقوله : " اللَّسَنُ، بالتحريك : الفصاحة، وقد لَسِن بالكسر فهو لَسِنٌ وألسَنُ، وقومٌ لُسْنٌ ، واللَّسْنُ : جودة اللسان وسلاطته(٤) ، وقال : " ومنه قيل للكلام الذي تَلْهَجُ به فِرْقَة :

---

(١) مناهج البحث في اللغة ص ٥٦ .

(٢) النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي ـ الدلالي ، د / محمد حماسة عبد اللطيف ص ٣٩ .

(٣) تاج العروس ٣٩ / ٤٦٢ (ل غ و) .

(٤) لسان العرب ١٣ / ٣٨٦ (ل س ن) .

لُغَة ، واشتقاقه من ذلك "[1] ، ومن ذلك يتبين أن ابن جني ـ ويوافقه بعض اللغويين كالزبيدي ـ ينظر إلى اللغة على أنها ما ننطقه ونتكلمه مضبوطًا بوعي المتكلم وإدراكه وفهمه لما يقول ، فاللغة لديه تعني الكلام المتماسك المترابط الذي يؤدي غرضًا أو فائدة .

وقد أشار ابن جني إلى عدد من الاعتبارات عندما تناول تعريف اللغة ، من هذه الاعتبارات أنها أصوات وهنا يشير إلى أبرز سمات اللغة وهى أنها أصوات منطوقة أو رموز ملفوظة فأخرج الرموز المكتوبة ، " واللغة وسيلة التعامل ونقل الفكر بين المؤثر والمتلقي وصدور هذه الرموز الصوتية اللغوية لأداء معان محددة متميزة يعنيها المتحدث ويفهمها المتلقي معناه اتفاق الطرفين على استخدام هذه الرموز للتعبير عن الدلالات المقصودة ، وبهذا يكون هناك ارتباط غير مباشر بين الجهاز العصبي للمتكلم والجهاز العصبي للمخاطب وما اللغة إلا وسيلة الربط بينهما وأداة التعبير ، فكل موقف كلامي يشترط وجود متحدث ومتلق ، وتتم عملية الكلام بأن يصدر الجهاز العصبي عند المتحدث أوامره إلى الجهاز النطقي عنده ، فتصدر اللغة وتمضي على شكل موجات صوتية في الهواء فيتلقاها المتلقي بجهازه السمعي ، ثم تنتقل بعد ذلك إلى جهازه العصبي فتترجم هذه الرموز الصوتية اللغوية إلى معانيها المرتبطة بها " [2] .

كما ألمح ابن جني إلى أبرز مظاهر اللغة وهى أنها اجتماعية حيث يتبين ذلك من قوله : " يعبر بها كل قوم " ، فاللغة تؤدي وظيفة اجتماعية في التواصل بين البشر وفي نقل الأفكار والتعبير عن الحاجات والأغراض التي لا يمكن أن تؤدى

---

(١) تاج العروس ٣٩ / ٤٦٦ (ل غ و) .

(٢) علم اللغة العربية مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية للدكتور / محمود فهمي حجازي ص ١٠ .

بشيء آخر سوى اللغة المنطوقة ، ثم أشار ابن جني إلى جانب في غاية الأهمية من جوانب اللغة وهو الوظائف التي تؤديها اللغة في المجتمع هذه الوظائف منها اجتماعية ومنها نفسية وأخرى سلوكية ... إلخ ، " وقد يقال : إن هذه الكلمة ــ أي : أغراضهم ــ غير محددة ، ذلك أنها لا تبرز وظائف معينة تعبر عنها اللغة ، والجواب أن التعريف ينبغي أن يشير باختصار إلى ما يشمل جميع الوظائف ، وشرح التعريف هو الذي يتكفل بمهمة بيان وظائف اللغة ، أما الاكتفاء بذكر وظيفة واحدة أو أكثر بقليل فذلك نقص في التعريف ينبغي تجنبه ، بالإضافة إلى أن اللغة يصعب حصر وظائفها في عدد محدود ، وذلك أن كل متكلم يستعملها لتحقيق أغراضه ، والأغراض متعددة إلى حد كبير " (١) .

وهذا التحليل لهذا التعريف لا يمكن أن نفهم منه أن ابن جني فصل أو فرق بين اللغة والكلام في الجانب التطبيقي ، بل هو تعريف للكلام أكثر من كونه تعريفًا للغة ، يقول د / تمام حسان : " وأما رأي ابن جني في اللغة فهو أنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم وهذا في الواقع تعرف للكلام لا للغة " (٢) .

وأبرز مأخذ يمكن أن يؤخذ على تعريف ابن جني اللغة هو أنه لم يشر إلى أنها تتكون من علامات ورموز تربط بينها علاقات مترابطة ومتماسكة ، وهذه الرموز والعلاقات " من أهم الخصائص التي ينبغي أن تذكر في تعريف اللغة ؛ لأن اللغة في حقيقتها ليست أصواتًا ينطق بها المتكلم هكذا دون علاقة بينها ، بل هى سلسلة من أصوات مرتبطة بعلاقات ائتلافية (syntagmatic) ، وأخرى استبدالية (pardigmatic) " (٣) ، والعلاقة الائتلافية هي التي أشار إليها دي سوسير

---

(١) وصف اللغة العربية دلاليًا ص ٢٢ .

(٢) مناهج البحث في اللغة ص ٥٦ .

(٣) وصف اللغة العربية دلاليًا ص ٢٢ .

بالعلاقة الاقترانية أو الترابطية (associative relation) ومعناها هي تلك العلاقات الأفقية التي تربط بين الأصوات والكلمات فعندما نقول : تربت يداك فليس لنا أن نجعل مكانها تربت كفاك على الرغم من التقارب الدلالي بين الكلمتين وهما (يداك وكفاك) ؛ وذلك لأن المتكلمين قد ألفوا تربت يداك ولم يألفوا تربت كفاك مع إمكانية وضعها مكان كلمة (يداك) من غير حدوث خلل في النظم أو التركيب .

أما العلاقات الاستبدالية فهي علاقات رأسية لا يجتمع اثنان منها في سياق واحد فإذا قلت : اشتريت اليوم خمسة أرغفة ، فإني اخترت اشتريت وليس لي أن استبدلها بكلمة أكرمت أو شربت أو نزلت ... فهذه العلاقة الاستبدالية استبعدت كل الخيارات الأخرى التي لا تصلح في هذا التركيب أو هذا السياق ، يقول د / محمد حسن عبد العزيز : " وتنعقد العلاقة الرأسية بين كلمة موجودة في السياق وعدد آخر من الكلمات من خارج السياق ، ولهذا فهي علاقة غياب قائمة على التداعي"(١).

ثم بدأ تعريف اللغة يأخذ شكلًا متطورًا عند ابن خلدون حيث فرق بين اللغة باعتبارها ملكة، واللغة المعينة المستعملة ، سابقًا بذلك دي سوسير بستمائة عام تقريبًا.

غير أن ابن خلدون يراها ملكة في اللسان ، ودي سوسير يراها ملكة بمعنى القدرة العقلية ، يقول ابن خلدون : " اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني ، وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة ، أو نقصانها ، وليس ذلك بالنظر إلى المفردات ، وإنما بالنظر إلى التركيب ، فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبق على مقتضى الحال ، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة

---

(١) ينظر : دي سوسير رائد علم اللغة الحديث ص ٣٤ .

مقصوده للسامع ، وهذا هو معنى البلاغة "[١] .

أما اللغة المستعملة فهي الكلمات التي يعبر بها المتكلم عن غرضه ومقصوده ، يقول ابن خلدون : " اعلم أن اللغة ـــ في المتعارف ـــ هي عبارة المتكلم عن مقصوده ، وتلك العبارة فعل لساني ناشئة عن القصد لإفادة الكلام ، فلا بدَّ أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان ، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم " [٢]

وهذا التعريف يصلح لأن يكون تعريفًا للكلام ـ أيضًا ـ وبذلك يتفق عنده الكلام واللغة ، وتنفرد اللغة بأنها الألفاظ الموضوعة للمعاني في المعجمات .

ب ـــ عند علماء اللغة العرب المحدثين :

أما المحدثون من علماء اللغة فقد تأثروا بالمفهوم الغربي للغة ، هذا المفهوم الذي يستند إلى بعض المقومات وأهمها أن اللغة نظام من العلاقات بين العلامات المتواضع عليها ، " بمعنى أن فيها نظامًا أصواتيًا ، إلى جانب نظام صرفي وآخر نحوي وهلم جرا ، وهذه النظم المتعددة متماسكة متضافرة تتعاون جميًعا في خلق هذه المنظمة الاجتماعية الكبرى ـ اللغة المعينة " [٣] .

وأخيرًا لا بد من مراعاة وظيفة اللغة في التعريف لأن المدارس اللغوية الحديثة ترى أن اللغة تتعدد وظائفها بتعدد مستعمليها ومستخدميها فمنهم من يرى أن اللغة تؤدي دور التعبير عن الانفعالات والعواطف ، ومنهم من يرى أن دور اللغة هو نقل الأفكار والرغبات ومنهم من يرى أن دور اللغة هو الاتصال والتواصل بين أبنائها ،

---

(١) المقدمة ٢ / ٣٧٨ .

(٢) المقدمة ٢ / ٣٦٧ .

(٣) مناهج البحث في اللغة ص ٣٤ .

ومن الخصائص البارزة والسمات الواضحة في نظرة المحدثين للغة أنها غير منطوقة، " ومن المؤكد أن اللغة المعينة لا بد أن تكون صامتة غير منطوقة ، وقد شبهها دي سوسير بالقاموس الذي يحتوي بين جلدتيه على محصول لغوي غير منطوق ، ولكنه صالح للنطق والاستعمال بالإرادة وفي الوقت المناسب " [١] .

ويمكن بيان ذلك فيما يلي :

ذهب كثير من الباحثين المحدثين إلى أن تعريف اللغة ليس بالأمر اليسير ، وأن تعريف اللغة تعريفًا علميًا من الصعوبة بمكان لتعدد وجهات نظر الباحثين وتنوع الزوايا التي ينظرون إليها في تعريفهم للغة ، فمنهم من ينظر إلى الناحية العقلية والنفسية ، ومنهم من ينظر إلى وظيفتها في المجتمع ، إلا أن هذا لم يمنع بعض الباحثين المحدثين من وضع تعريف للغة قد يكون أقرب إلى بيان حد اللغة وحقيقتها مع الاعتراف بصعوبة وضع تعريف علمي جامع مانع ، ومن ثم كثرت التعريفات وذلك لمحاولة كل تعريف أن يغطي القصور في التعريفات الأخرى ، ومن تلك التعريفات :

١ــ سبق أن ذكرت أنَّ المحدثين من علماء اللغة ينظرون إليها على أنها نظام متكامل يتكون من أصوات محددة ولها سمات مخصوصة ، هذه الأصوات يمكن أن تتألف على نحو مخصوص لتكون كلمات مفردة ، وهذه الكلمات المفردة يمكن أن تكون جملة أو جملًا على نسق معين يرتضيه أبناء تلك اللغة ، وهى مخزونة في العقل الجمعي لأبنائها ، فإن ظهرت إلى العلن فهي كلام ، ويمكن أن نفهم هذا المعنى من قول د. تمام حسان فقد عرف اللغة بأنها : " مجموعة من العلامات المختزنة في العقل الجمعي ، ولا تنطق ؛ لأنها ليست فردية " وهذا التعرف خاص

(١) السابق ص ٣٤ .

باللغة المعينة كالعربية والفرنسية ، أما اللغة باعتبارها ملكة فهي اللغة الإنسانية ، وقد فرق بين اللغة الإنسانية واللغة المعينة بقوله : " فاللغة إذًا ملكة أو طاقة أو استعداد أو سمها ما شئت ، ولكن اللغة المعينة نتاج جمعي لهذه الملكة ، ومجموعة من حالات التعارف الضرورية مكيفة اجتماعيًا لتسمح بالعمل للملكات الفردية "[١] .

٢ ــ ذهب أحد الباحثين إلى أن أشمل تعريف للغة هو التعريف القائل : " اللغة ظاهرة بسيكولوجية اجتماعية ثقافية مكتسبة ، لا صفة بيولوجية ملازمة للفرد ، تتألف من مجموعة رموز صوتية لغوية ، اكتسبت عن طريق الاختبار معاني مقررة في الذهن ، وبهذا النظام الرمزي الصوتي تستطيع جماعة ما أن تتفاهم وتتفاعل " [٢] ، فاللغة عنده عملية معقدة تشترك فيها جوانب متعددة ، فهي أكثر من مجموعة أصوات ، وأكبر من أن تكون أداة للفكر أو وسيلة للتعبير عن الحاجات أو الرغبات أو العواطف ، بل هي عملية نفسية فيزيائية اجتماعية على غاية من التعقيد والتداخل، وتكتسب بالاجتهاد والتحصيل ، وكلما تفوق الإنسان في الاكتساب والتحصيل كلما اكتسب قدرة على التعبير والتأثير وزادت لديه المقدرة على التفاهم والتفاعل .

٣ ــ وقد عرف اللغة باحث آخر بقوله : " إن اللغة نظام من العلامات المتواضع عليها اعتباطًا التي تتسم بقبولها للتجزئة ، ويتخذها الفرد عادة وسيلة للتعبير عن أغراضه ، ولتحقيق الاتصال بالآخرين ، وذلك عن طريق الكلام أو الكتابة " [٣] ، أول ما بدأ صاحب هذا التعريف بدأ بالنظام المتمثل في النظام الصوتي والصرفي والنحوي ، ثم أشار إلى العلامات والرموز الاعتباطية أو الاصطلاحية ، ثم أضاف قبول

---

(١) مناهج البحث في اللغة ص ٣٣ .

(٢) نظريات في اللغة تأليف / أنيس فريحة ص ١٤ ، وفقه اللغة العربية وخصائصها تأليف د / إميل بديع يعقوب ص ١٣ .

(٣) وصف اللغة العربية دلاليًا ص ٢٤ .

التجزئة من أصوات مفردة إلى كلمات والكلمات تكون جملًا والجمل تكون نصًا متكاملاً ، ثم أشار إلى بعض وظائف اللغة إجمالًا ، وهى تتمثل في أمرين : أحدهما : التعبير عن الأغراض ـ وهذا العنصر مقتبس من تعريف ابن جني ـ والآخر : التواصل سواء أكان بين الإنسان وذاته أم بين الإنسان والإنسان الآخر ، أم بين الإنسان وخالقه عن طريق الابتهال والتضرع والدعاء ، ثم أشار إلى مظهرين من مظاهر اللغة وهما : أ ـ الكلام عن طريق الرموز المنطوقة ، ب ـ الكتابة عن طريق الرموز المرسومة .

٤ ـ تأثر اللغويون العرب بعلماء الاجتماع ـ كما تأثر الغربيون كذلك ـ في تعريف اللغة ، وذلك عندما عرفوا اللغة بأنها : " نظام من رموز ملفوظة عرفية يتعامل ويتعاون بها أعضاء المجموعة الاجتماعية المعينة " [١] ، الاهتمام البارز في هذا التعريف هو كون اللغة نظامًا لكن قوله : من رموز ملفوظة عرفية بمعنى اعتباطية أو اصطلاحية يميل بهذا التعريف إلى ما يشمل الكلام ، ثم أشار إلى الجانب الاجتماعي في أنها تكتسب من المجتمع وتستعمل فيه ـ أيضًا ـ وأشار إلى بعض وظائف اللغة إجمالًا وهي التعامل والتعاون .

٥ ـ عقد الدكتور/ محمد حسن عبد العزيز في كتابه:(مدخل إلى علم اللغة) بحثًا تمهيديًا عن خصائص اللغة ، والتعريف الذي ارتضاه لها هو : " اللغة نظام من الرموز المنطوقة المكتسبة تستخدمه جماعة معينة من الناس بهدف الاتصال وتحقيق التعاون فيما بينهم " [٢] ، لكن من المنظور الحديث للغة يعتبر هذا التعريف والذي قبله تعريفًا للكلام أكثر من كونه تعريفًا للغة .

---

(١) فقه اللغة العربية د / عبد الغفار حامد هلال ص ١٢ .

(٢) مدخل إلى علم اللغة د / محمد حسن عبد العزيز ص ١٩ .

٦ ـ عرف د . عبد العزيز علام اللغة بقوله : " هي عبارة عن النظام اللغوي ، من الرموز والصيغ والقواعد ، المستقر في أذهان الجماعة بالنسبة للغتهم المعينة " [١] ، وهنا أشار إلى النظام اللغوي المتمثل في الرموز الصوتية والصيغ الصرفية والقواعد النحوية لكنها ليست في الواقع والمحسوس وإنما هي مجردة في أذهان الجماعة اللغوية .

تعريف اللغة عند اللغويين الغربيين :

سبق القول بأن تعريف مصطلح اللغة لدى اللغويين العرب القدامى لم يخرج عندهم عن أمرين :

أحدهما : الألفاظ الموضوعة للمعاني .

والآخر : الأصوات التي تعبر عن الأغراض .

أما اللغويون الغربيون فقد أولوا مصطلح اللغة عناية كبيرة وعرفوه بتعريفات متعددة يمثل كل تعريف منها توجه صاحبه ونظرته لذلك المصطلح ، وقد تبنى بعض اللغويين العرب المحدثين بعض هذه التعريفات ورأوا أنها تمثل نظرتهم لها .

وأبرز ما يمكن أن يسجل من العناصر التي تمثل اللغة هي أنها نظام من العلامات أو الرموز تربط بينها علاقات ، وأنها مختزنة في العقل الجمعي لأبنائها ، وهي شيء مجرد ذهني ، كما أن لها وظائف تؤديها في المجتمع ، وأنها تقبل التجزئة إلى أصوات وصيغ وجمل ، وتعبر عن أفكار جزئية ، يمكن أن تكون أفكارًا شاملة ، ويمكن بيان ذلك فيما يلي :

١ ـــ تعريف دي سوسير :

من أبرز الجهود التي قام بها دي سوسير في مجال علم اللغة أنه فرق بين اللغة

---

(١) في علم اللغة العام (القسم الأول) ص ٣٧٤ .

بمفهومها العام باعتبارها ملكة وهى اللغة الإنسانية أو اللسان ، واللغة المعينة كالعربية والفرنسية ، فاللغة الملكة لها جانبان أحدهما : فردي ، والآخر : اجتماعي ، ولا يمكن تصور أحدهما من دون الآخر ، أما اللغة المعينة فقد عرفها بقوله : " اللغة نتاج اجتماعي لملكة اللسان ومجموعة من التقاليد الضرورية التي تبناها مجتمع ما ليساعد أفراده على ممارسة هذه الملكة " (١) ، واللغة المعينة هي جزء من اللغة الملكة ، وهي نتاج اجتماعي لمقدرة اللغة الملكة ، وسيأتي تفصيل ذلك في المبحث القادم إن شاء الله تعالى .

٢ ـــ تعريف إدوارد سابير :

عرف اللغوي الأمريكي (إدوارد سابير) اللغة بأنها : منهج بشري صرف غير غريزي لإبلاغ الأفكار والعواطف والرغبات بواسطة نظام من الرموز المحدثة اختيارًا ، وقال :

Language is a purely human and non+ instinctive method of communicating ideas emotions and desires by means of a system of voluntazily produced symbols"

وقد ترجم د / محمود السعران هذا النص فقال : " اللغة وسيلة إنسانية خالصة ، وغير غريزية إطلاقًا لتوصيل الأفكار ، والانفعالات ، والرغبات عن طريق نظام من الرموز التي تصدر بطريقة إرادية " (٢)

أما د/ حسن ظاظا فقد ترجم النص عن اللغة الفرنسية قائلًا : " الكلام(٣) هو وسيلة تفاهم خاصة بالإنسان ، وغير غريزية فيه ، تمكنه من تبادل الأفكار

---

(١) السابق ص ٢٧ .

(٢) ينظر : علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ص ٥٦ .

(٣) هكذا ترجمها الدكتور / حسن ظاظا ، ولعل ذلك يرجع إلى أن السياق الحديث في هذه الجزئية كان عن الكلام وتعريفه .

والوجدانات والرغائب بوساطة رموز صوتية اصطلاحية ، على وجه التغليب والتعميم ، تصدرها أعضاء النطق إراديًا باندفاع الهواء خلالها من الداخل إلى الخارج " [١] .

وقد كان جل اهتمام اللغويين الغربيين عند تعريف اللغة بعد دي سوسير هو إبراز وظيفة اللغة وأنها رموز اصطلاحية اختيارية ، ومن ذلك تعريف إدوارد سابير (Edward Sapir) فاللغة عنده وسيلة لإبلاغ (communicating) الأفكار (ideas) والعواطف (emotions) والرغبات (desires) .

وبعض التعريفات كان اهتمامها منصبًا على إبراز الجانب الاجتماعي للغة بالإضافة إلى أنها تتكون من رموز اصطلاحية اعتباطية ، ومن ذلك تعريف اللغويين الأمريكيين برنارد بلوك (Bernard Bloch) ، وجورج . ل . تراجر (George. L. Trager) الذين يقولان فيه: " إن اللغة نظام من الرموز اللفظية الاعتباطية التي يتم عن طريقها التعاون بين أفراد الجماعة الاجتماعية " [٢] ، والرموز اللفظية في التعريف تخرج الرموز الكتابية ، وهذا التعريف للغة يصلح في الوقت ذاته تعريفًا للكلام ، وبذلك تكون اللغة هي مجموع النظام والكلام ، غير أن النظرة الحديثة للغة ترى أن الكلام هو مظهر من مظاهر اللغة كالكتابة وليس مكونًا من مكوناتها .

وقد عرفها اللغوي الأمريكي روبرت أندرسون هول (Robert . A . Hall ١٩١١ ـ ١٩٩٧ م) بقوله : " إن اللغة هي المؤسسة الاجتماعية التي بواسطتها يبلغ الناس بعضهم بعضًا ، ويتفاعلون عن طريق الرموز الاعتباطية الشفهية ـ السمعية (oral – auditory) المستخدمة بحكم العادة (habitually) " [٣] ،

---

(١) اللسان والإنسان ص ٣١ .

(٢) السابق ص٢٠ .

(٣) وصف اللغة العربية دلاليًا ص ٢٠ .

وقوله : " مؤسسة اجتماعية " يشير إلى أن اللغة نتاج جمعي وجزء من ثقافة المجتمع ، واكتفى في الإشارة إلى وظائف اللغة بالتبليغ ، لكنه لم يخرج عملية الكلام من التعريف إذ إنه أشار إلى الرموز الاعتباطية الملفوظة أو المنطوقة بل جعل عملية الاستماع داخلة في جزئيات اللغة ومكوناتها .

كما عرفها اللغوي الأصواتي الإنجليزي هنري سويت (١٨٤٥ ـ ١٩١٢ م) (Henry Sweet) بقوله : " تعبير عن أفكار جزئية (ideas) بواسطة أصوات كلامية مؤلفة في كلمات مؤلفة في جمل ، وهذا التأليف منطبق على الأفكار الجزئية المندرجة في أفكار شاملة (thoughts) [١] .

فقوله : " أفكار جزئية " يشير إلى أبرز خصائص اللغة وهو أنها قابلة للتجزئة ، فهي تتكون من أصوات ، ثم تتألف الأصوات وتكون كلمات ، التي تتكون منها الجمل والعبارات ، التي تؤلف بدورها النص الذي يصلح لأن يكون بيتًا شعريًا أو قصيدة أو خطبة أو كتابًا ، ويلاحظ على التعريف ـ أيضًا ـ أنه لم يستبعد العملية الكلامية من التعريف وصرح بالجانب الصوتي والبنيوي والتركيبي الذي يكون الرسالة اللغوية ، وبذلك فهو لا يقصر اللغة على النظام المختزن في عقول أبنائها بل والمنطوقة التي تعبر عن أفكار جزئية دخلة في أفكار كلية .

وعرف جوزيف فندريس اللغة بقوله : هي مجموعة الإجراءات الفسيولوجية والسيكولوجية التي في حوزة الإنسان لتمكنه من الكلام " [٢] ، الإجراءات الفسيولوجية تتمثل في الانفعالات والعواطف ، والإجراءات السيكولوجية تتمثل في الروابط التي تنشأ عن طريق النشاط الإنساني وتكون اللغة وسيلة العمل لهذه الغاية ، ولم يشر فندريس إلى أنظمة اللغة ولا إلى الرموز الاعتباطية ولا إلى النطق

---

(١) السابق ص ٢١ .

(٢) اللغة ص ٢٩٧ .

والأداء كمكون من مكونات اللغة ، وإنما مجموعة الإجراءات ـ عنده ـ هي التي تصل به إلى مرحلة الكلام والأداء .

تعريف الكلام :

الكلام اسم مصدر، وقيل : مصدر والرأي الأول أرجح ؛ لأن الكلام مأخوذ من الفعل كلَّم ، وفعَّل يكون مصدره : التفعيل نحو : كلَّم تكليمًا ، وكسَّر تكسيرًا ، واسم المصدر هو ما دل على الحدث وخلا من بعض حروف فعله ، ومثال ذلك : توضأ وضوءًا ، وتكلم كلامًا ، فالوضوء والكلام اسمان للمصدر ، لا مصدران ؛ لخلوهما ـ لفظًا وتقديرًا ـ من بعض ما في فعلهما[١]

وهو مأخوذ من الكَلْمِ بمعنى الجَرْحِ يقول ابن جني : " فمن ذلك الأصل الأول (ك . ل . م) منه الكَلْم للجَرْحِ ، وذلك للشدة التي فيه ... وقالوا : رجل كليم أي : مجروح وجريح " [٢] ، وقريب من ذلك قول الزبيدي : " والكَلْمُ بالفتح الجَرْح ، قيل : ومنه سميت الكلمة كَلْمة ، وأنشدوا :

جراحات السنان لها التئامٌ ولا يَلْتام ما جرح اللِّسانُ[٣]

... وكلَّمه يُكلِّمه كَلْمًا وكلَّمه تَكْليمًا : جرحه " [٤] .

الكلام في اللغة :

واختلف في المعنى اللغوي للكلام وذلك على النحو الآتي :

---

(١) ينظر : شرح التسهيل لابن مالك ٣ / ١٢٢ ، وتوضيح المقاصد للمرادي ٣ / ٨٥٤ .
(٢) الخصائص ١ / ١٤ .
(٣) البيت من الوافر ، في تاج العروس ٣٣ / ٣٧٣ (ك ل م) .
(٤) تاج العروس ٣٣ / ٣٧٣ (ك ل م) .

أ ـ خص بعض اللغويين معنى الكلام بأنه الأصوات الدالة على معنى ، ومن ذلك قول الفيومي : " والكلام في أصل اللغة عبارة عن أصوات متتابعة لمعنى مفهوم" [١]، والنطق المفهم هو أحد مدلولي مادة (ك ل م)، والآخر الجراح ، يقول ابن فارس : " الكاف واللام والميم أصلان : أحدهما : يدل على نطقٍ مفهم ، والآخر : على الجراح " [٢] ، ويدل ذلك على أن الكلام لا بد فيه من النطق بالأصوات اللغوية الدالة على معنى ، أما ما يسمى بلسان الحال فلا يسمى كلامًا ، واستدلوا على أن الكلام لا يكون إلا بلفظ ونطق بقول عنترة :

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي[٣]

فدل ذلك على أن الكلام لا يكون إلى بنطق ولفظ ، وقد ذكر ابن مالك هذا البيت ثم قال : " وبين عنترة أن هذا الحال المعبر عنه بالقول ليس كلامًا " [٤] .

ب ـ يطلق الكلام على القول يقول ابن سيده : " الكلام : القول ، وقيل : الكلام : ما كان مكتفيًا بنفسه ، وهو الجملة ، والقول : ما لم يكن مكتفيًا بنفسه وهو الجزء من الجملة " [٥] .

فالكلام هو ما استقل بمعناه ، أما القول فقد يستقل بمعناه وقد لا يستقل ، فالقول أعم من الكلام ، وقد فصل ابن جني الكلام في هذه المسألة باستفاضة في باب (باب القول على الفصل بين الكلام والقول) يقول ابن جني : " أما الكلام فكل لفظ مستقل بنفسه ، مفيد لمعناه ، وهو الذي يسميه النحويون الجمل ... وأما القول

---

(١) المصباح المنير ص ٢٠٦ (ك ل م) .
(٢) المقاييس ٥ / ١٣١ (ك ل م) .
(٣) البيت من الكامل في ديوان عنترة ص ٨٣ .
(٤) شرح التسهيل لابن مالك ١ / ٦ .
(٥) المحكم ٧ / ٤٠ (ك ل م) .

فأصله أنه كل لفظ مذل به اللسان تاماً كان أو ناقصاً ، فالتام هو المفيد ، أعني الجملة وما كان في معناها ، من نحو صه ، وإيه ، والناقص ما كان بضد ذلك ... فكل كلام قول ، وليس كل قول كلاماً هذا أصله "[١] .

ومن اللغويين من قال بأن القول والكلام مترادفان ويدل على ذلك قول ابن سيده : " الكلام : القول " [٢] والأرجح والأكثر أن بينهما فرقًا وهو ما رجحه ابن سيده في قوله " الكلام ما كان مكتفياً بنفسه ، وهو الجملة ، والقول ما لم يكن مكتفياً بنفسه وهو الجزء من الجملة ، قال سيبويه : اعلم أنَّ (قلت) إنما وقعت في الكلام على أن يحكى بها ، وإنما يحكى بها ما كان كلاماً لا قولاً [٣]، ومن أدل الدليل على الفرق بين الكلام والقول إجماع الناس على أن يقولوا : القرآن كلام الله ، ولم يقولوا : القرآن قول الله ؛ وذلك أن هذا موضع ضيق متحجر لا يمكن تحريفه ولا يسوغ تبديل شيء من حروفه ، فعبر لذلك عنه بالكلام الذي لا يكون إلا أصواتاً تامة مفيدة ، قال أبو الحسن : ثم إنهم قد يتوسعون فيضعون كل واحد منهما موضع الآخر " [٤] .

ج ـ أنه يطلق على الحدث بمعنى التكليم ، ومن ذلك قول الشاعر :

قالوا : كلامك هندًا وهى مصغية يكفيك قلت : صحيح ذاك لو كانا[٥]

ويقولون : يعجبني كلامُك زيدًا ، أي : تكليمك ، ويقال : عجبت من كلامك زيدًا .

---

(١) الخصائص ١ / ١٧ .

(٢) المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، تأليف/ علي بن إسماعيل بن سيده ٧ / ٤٠ (ك ل م) .

(٣) يقول سيبويه : واعلم أن (قلتُ) إنما وقعت في كلام العرب على أن يحكى بها ، وإنما تَحْكي بعد القول ما كان كلامًا لا قول " الكتاب ١ / ١٢٢ .

(٤) المحكم ٧ / ٤٠ (ك ل م) .

(٥) البيت من البسيط ولم يعرف قائله ، وهو في ارتشاف الضرب ص ٢٢٦٥ ، وشرح شذور الذهب للجوجري ١ / ١٦٤ .

د ـ يطلق على المعنى القائم بالنفس ، ومن ذلك قول الشاعر :

إن الكـــلام لفـــي الفـــؤاد وإنمـــا جعـل اللســان علــى الفـؤاد دلـيلًا[1]

وقد عد الفيومي ذلك هو الإطلاق الحقيقي لكلمة (كلام) فقال : والكلام في الحقيقة هو المعنى القائم بالنفس؛ لأنه يقال : في نفسي كلام " [2] ، واستدل بقول الآمدي : " وليس المراد من إطلاق لفظ الكلام إلا المعنى القائم بالنفس ، وهو ما يجده الإنسان من نفسه إذا أمر غيره أو نهاه أو أخبره أو استخبر منه ، وهذه المعاني هي التي يدل عليها بالعبارات ، وينبه عليها بالإشارات " [3] ، والمعنى القائم في النفس معناه أنه إدراك عقلي يدركه الإنسان لحقيقة ثابتة من حقائق الوجود ، ثم يقوم بالتعبير عنه بالألفاظ والعبارات .

واعترض على هذا الرأي من عدة وجوه ومنها :

١ ـــ قالوا : إن الكلام لابد أن يكون له أصوات مسموعة ، والمعنى القائم بالنفس ليس بصوت فلا يكون كلامًا ؛ ولذا فرق اللغويون بين المعاني وهى إدراك عقلي أو صورة ذهنية وبين الألفاظ التي هي منطوقات ، وكلاهما معًا يسمى كلامًا ، فالألفاظ عندما تتضمن المعاني هي التي تسمى كلامًا وليس المعاني المجردة التي لا تظهر في عالم الواقع بالنطق والتحدث .

---

(١) البيت من الكامل ونسب للأخطل في شرح شذور الذهب لابن هشام ص ١٩ ، وليس في ديوانه ، وهو في ملحقات ديوانه ص ٥٦٠ في شعر الأخطل أبي مالك غياث بن غوث التغلبي صنعة السكري روايته عن أبي جعفر محمد بن حبيب ، تحقيق / فخر الدين قباوة ط / دمشق : دار الفكر سنة ١٩٩٦ م ، ومن غير نسبة في شرح شذور الذهب للجوجري ١ / ١٦٤ ، والبيان والتبيين للجاحظ ١ / ٢١٨ ، وشرح ابن يعيش ١ / ٢١ .

(٢) المصباح المنير ص ٢٠٦ (ك ل م) .

(٣) السابق ص ٢٠٦ (ك ل م) .

٢ ـــ قالوا : إن هذا المعنى لا يصح في الاعتقاد ؛ وذلك لأن القرآن كلام الله وهو قديم وهو يتكون من حروف وكلمات وليس معنى في النفس .

٣ ـــ تأولوا معنى البيت بأنه حديث النفس قبل أن يخرج للوجود بالأصوات والحروف والكلمات ، فلا بد وأن تسبق المعاني الذهنية الألفاظ الكلامية .

٤ ـــ البيت غير موجود في ديوان الأخطل ، ولكنه يوجد في الأبيات التي نسبت للأخطل .

٥ ـــ رواية الجاحظ في البيان والتبيين :

إن الكلام من الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلًا

لا يعجبنك من خطيب قوله حتى يكون مع البيان أصيلًا[١]

بمعنى أن الكلام الصادق هو الذي يخرج من القلب ، وليس ما ينطقه اللسان دون موافقة القلب .

هـ ـ يطلق على حديث النفس ، أو ما في النفس مما يعبر عنه باللفظ الذي يفيد كأن يتخيل الإنسان كلامًا في نفسه نحو : ذهب محمد وجاء على ، ولكن هذا المعنى لا يستقل بذاته ؛ لأنه لا يكون كذلك إلا إذا سمعه من غيره فيرجع إلى المعنى القائل بأن الكلام هو القول أو النطق المفهم ، كما استدل اللغويون على أن حديث النفس لا يعد كلامًا بقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي رواه أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : " إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم "[٢] فهذا يدل على أن الكلام لا يكون إلا باللفظ والنطق ولا يكون بحديث النفس .

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٢١٨ .

(٢) الحديث في البخاري (كتاب العتق) تحت رقم (٢٥٢٨) ، برواية : إن الله تجاوز لي عن أمتي ما وسوست به صدورها ما لم تعمل أم تكلم ، وفي مسلم (كتاب الإيمان باب تجاوز الله ←←←

و ــ يطلق على الدوال الأربع ، أو الدوال الخمس ، وهى أشياء يطلق عليها كلام في اللغة وليست بنطق ولا بلفظ ، فالدوال الأربع هي : الخط ، والإشارة ، وما يفهم من حال الشيء ، وحديث النفس ، والدوال الخمس هي هذه الأربع ويضاف إليها التكلم ، يتبين ذلك من قول المرادي عندما وضح معنى تعريف الكلام بأنه اللفظ المفيد حيث قال : " وخرج بتصدير الحد به ـ أي : اللفظ ـ ما يطلق عليه كلام في اللغة وليس بلفظ وهو خمسة أشياء : الخط ، والإشارة ، وما يفهم من حال الشيء ، وحديث النفس ، والتكلم " [١] .

ز ــ يطلق على ما أفاد معنى مطلقًا سواء أكان بلفظ أم بإشارة أم بغيرهما ، وجعلوا من ذلك قوله تعالى : " قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزًا " [٢] وقالوا : إن الرمز هنا معناه : الإشارة باليد ، أو الرأس أو غيرهما ، وقالوا : إن الاستثناء هنا متصل فيكون الرمز من جنس الكلام ، يقول أبو حيان : " ومن أطلق الكلام في اللغة على الإشارة الدالة على ما في نفس المشير فلا يبعد أن يكون هذا الاستثناء متصلًا على مذهبه ، ولذلك أنشد النحويون :

أرادتْ كلامًا فاتقتْ من رقيبها ... فلم يكُ إلا ومْؤها بالحواجب [٣]

وقال :

→→→

عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر) تحت رقم (١٢٧) برواية : إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا .

(١) توضيح المقاصد ١ /٢٦٨ .

(٢) آل عمران من الآية / ٤١ .

(٣) البيت من الطويل لبعض الهذليين في التذييل والتكميل لأبي حيان ١ / ٢٥ وليس في شرح أشعار الهذليين ولا في ديوانهم .

إذا كلمتنـــي بـــالعيون الفـــواتر رددتُ عليهـــا بالـــدموع البـــوادر[١]

واستعمل المولدون هذا المعنى ، قال حبيب :

كلمتُـــه بجفـــون غيـــر ناطقـــة فكـــان مـــن ردِّه مـــا قـــال حاجبـــه[٢]

وكونه استثناء متصلًا قال به ـ أيضًا ـ الزمخشري ، فقال : لما أدى مؤدى الكلام وفهم منه ما يفهم منه سمى كلامًا " [٣] .

ح ـ ما دل على لسان الحال ، ومن ذلك قول نُصيب :

فعـــاجوا فـــأثنوا بالـــذي أنـــت أهلـــه ولـــو سـكتوا أثنـت عليـك الحقائـب[٤]

ولكن اعترض عليه أن هذا ليس على الحقيقة وإنما هو من قبيل المجاز .

الكلام في الاصطلاح :

بدأ مدلول مصطلح الكلام في التراث اللغوي بدلالته على ضم أو تأليف ــ وفضل بعضهم التأليف لأنه من الألفة ــ بعض الكلمات بطريقة متتابعة للدلالة على معنى يقصده المتكلم ، وكلمة لها معنى هنا تعني وجود علاقة بين الكلمات تجعلها قادرة على إفادة معنى يحسن السكوت عليه ، والكلام جمع كلمة ومعناه ضم كلمة إلى أخرى لإفادة معنى يريد المتكلم إيصاله للسامع، يفهم ذلك من قول الشهرستاني (ت ٥٤٨ هـ) : " إن النطق اللساني مركب من حروف ، والحروف مقطعات من أصوات ، وما من حرف يتفوه به الإنسان وينطق به اللسان إلا ويفنى عُقيب ما وُجد

---

(١) البيت من الطويل لإبراهيم بن المهدي في شرح ديوانه ص ٥٠ .

(٢) البيت من البسيط لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي في ديوانه ٤ / ١٥٩ .

(٣) البحر المحيط ٢ / ٤٧٢ ، وينظر : الكشاف ١ / ٣٥٥ .

(٤) البيت من الطويل لنصيب بن رباح الأموي في شرح شذور الذهب لابن هشام الأنصاري ١ / ٥٥ .

وينعدم كما يتجدد ويعقبه حرف آخر إلى أن يصير مجموع الحرفين والثلاثة وأكثر كلمة ، ويصير مجموع الكلمتين والثلاث وأكثر كلامًا مفهومًا مشتملًا على معنى من المعاني معلوم لولا ذلك المعنى لم يسمَّ الحروف والكلمات كلامًا " [١] ، وقد أشار الشهرستاني إلى خاصية هي من أهم خصائص الكلام وهى التعاقبية حيث إن الحروف والكلمات والجمل يعقب بعضها بعضًا وهنا يحدث التجدد والتأليف .

ثم توسع هذا المدلول ليدل على اللغة في حالة الأداء والاستعمال ، وفي جميع الحالات له مقومات لا بد منها وهى وجود زمن تؤدى فيه هذه الكلمات ، فإذا كانت اللغة المختزنة في الذهن لا تحتاج إلى زمن تحل فيه فإن الكلام لا يستغني عن هذا العامل ، يقول د / المسدي : " فالكلام إذن لا يصح في حقه أن يوجد دفعة واحدة ، إذ لا بد لأجزائه أن تنتظم على سلك الزمن ، سابقًا فلاحقًا فتابعًا ، وهذا مؤداه أن أي جزء من أجزاء سلسلة الخطاب لا بد أن يكون له مع أي جزء من الأجزاء الباقية علاقة زمنية هى بالضرورة إما موجبة وإما سالبة ، فلا مناص من أن يكون أحدهما إما سابقًا للآخر أو لاحقًا به ... فخضوع الكلام إلى قيد الزمن هو ضرورة مبدئية في وجوده نوعيًا ووظيفيًا " [٢] .

وقد أشار العلامة ابن جني إلى أهمية عامل الزمن في الكلام عامة وفي العلاقات بين الكلمات خاصة فقال : " وكأنه إنما جاء هذا النحو في الأزمنة دون الأمكنة من حيث كان كل جزء من الزمان لا يجتمع مع جزء آخر منه ، إنما يلي الثاني الأول خالفًا له ، وعوضًا منه " [٣] .

---

(١) نهاية الإقدام ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، والتفكير اللساني ص ٢٧٧ .

(٢) التفكير اللساني ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨ .

(٣) الخصائص ٣ / ٢٢٨ .

ويشير الفخر الرازي إلى حتمية وقوع الكلام في زمن يسير فيه بحكم وجود الحركة ــ بمعنى حركة الجسم ــ التي تقتضي وجود زمن تحدث فيه فيقول : " الكلمة لا تكون كلمة إلا إذا كانت حروفها متوالية ... الحروف التي منها تألفت الكلمة إن حصلت دفعة واحدة لم تحصل الكلمة ؛ لأن الكلمة الثلاثية يمكن وقوعها على التقاليب الستة، فلو حصلت الحروف معًا لم يكن وقوعها على بعض تلك الوجوه أولى من وقوعها على سائرها " (١) ، ومن هنا سمى الكلام حديثًا ؛ " لأنه يحدث حالًا بعد حال على الأسماع " (٢) .

وإذا كان التوالي شرط في الكلام لوقوع الفائدة فإن قطع الكلام والفصل بين أجزائه مذهب لفائدته ومضيع لمعناه ، يقول القاضي عبد الجبار :" فأجزاء الحدث الكلامي مثلما يتعذر عليها التطابق على نفس النقطة من محور الزمن ، كذلك لا يجوز في حقها أن تتباعد إلى حد القطع ، فتحتم الإقرار إذن بأن الكلام بعضه يحدث تاليًا لبعض من غير قطع وفصل ، فحل من هذا الوجه محل الجواهر المتجاورة التي لا ينقطع بعضها عن بعض ، فإذا وصفت هذه الجواهر بأنها منظومة جاز أن يوصف ما ذكرناه من الحروف بأنه منظوم " (٣) .

وقد أشار ابن سنان الخفاجي إلى شرط انتظام الكلام وتواليه فقال : " وإنما شرطنا الانتظام لأنه لو أتى بحرف ومضى زمان وأتى بحرف آخر لم يصح وصف فعله بأنه كلام " (٤) .

---

(١) مفاتيح الغيب ١ / ٣٠ .
(٢) السابق ١ / ٣٠ .
(٣) المغني ٧ / ٨ ، ٩ .
(٤) سر الفصاحة ص ٢٥ .

وبناء على ارتباط الكلام بعنصر الزمن وأنه لا بد من وجود زمن يقع فيه الكلام لأن الكلام حركة ـ بمعنى احتكاك جسم بجسم آخر ـ والحركة تقتضي وجود زمن يستوعب تلك الحركة ، لذا فإن الكلام إذا حدث لا يمكن أن يعود مرة أخرى ، وقد أشار الدكتور / المسدي إلى هذا المعنى بقوله :" فالكلام فعل لا ينعكس مساره ؛ لأنه لا يقبل أن يرتد أو يعود إلى مصاعد الزمن بعد أن تنزل في مدارجه ، فمن مقومات الكلام أنه غير انعكاسي في شكله وتصوره " [١] .

وقد اشترط بعض اللغويين أن يكون الكلام مفيدًا ، لكن ابن سنان الخفاجي لم يشترط ذلك وقال : " وليس يجوز أن يشترط في حد الكلام كونه مفيداً على ما يذهب إليه أهل النحو ، ومضى في بعض كلام أبي هاشم، وذلك أنا وجدنا أهل اللغة قد قسموا الكلام إلى مهمل ومستعمل. والمهمل ما لم يوضع في اللغة التي أضيف أنه مهمل إليها لشيء من المعاني والفوائد، والمستعمل هو الموضوع لمعنى أو فائدة. فلو كان الكلام هو المفيد عندهم وما لم يفد ليس بكلام لم يكونوا قسموه إلى قسمين، بل كان يجب أن يسلبوا ما لم يفد اسم الكلام رأسًا، لا أن يجعلوه أحد قسميه. على أن الكلام إنما يفيد بالمواضعة. وليس لها تأثير في كونه كلامًا " [٢] ، لكن جمهور اللغويين على أن الكلام يطلق على ما يفيد فقط ؛ ولذا رد الفيومي على من قال بأن الكلام يطلق على ما يفيد ومالا يفيد بقوله : " وقد حكى بعض المصنفين أن الكلام يطلق على المفيد وغير المفيد ، قال : ولهذا يقال : هذا كلام لا يفيد وهذا غير معروف وتأويله ظاهر " [٣] .

---

(١) التفكير اللساني للمسدي ص ٢٨٠ .

(٢) سر الفصاحة ص ١٤ .

(٣) المصباح المنير ص ٢٠٦ (ك ل م) .

ومن مقومات الكلام كذلك أعضاء النطق ـ والحديث هنا عن كلام البشر وليس كلام الخالق جل وعلا ــ فلا يمكن أن نتصور كلامًا على سبيل الحقيقة إلا إذا اعتمد على أعضاء النطق أو ما يسمى جهاز النطق ، يقول د / محمود فهمي حجازي : " إن عملية الكلام تتم نتيجة وجود مؤثرات خارجية أو داخلية مرئية أو مسموعة ، يستجيب لها الجهاز العصبي للمتكلم فيصدر أوامره إلى أعضاء النطق فترسل بدورها هذه الأوامر على شكل موجات صوتية ، وتمضي هذه الموجات في الهواء فتتلقاها أعضاء السمع عند المتلقي ناقلة إياها إلى الجهاز العصبي ، وقد يصدر أوامره بعد ذلك إلى أعضاء النطق ، وهكذا تحدث عملية الكلام " (١) .

ويكاد يتفق علماء اللغة القدامى على أن الكلام هو ما تألف من كلمتين فصاعدًا وأفاد معنى يحسن السكوت عليه ، ويتبين ذلك مما يلي :

ويرى النحاة أن الكلام هو ما تركب من مسند ومسند إليه ، فقد عرف الزمخشري الكلام بقوله: " الكلام هو : المركب من كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى " (٢) ، ويسمى الجملة ، ويتبين من ذلك أن الجملة هي أكبر وحدة عند النحويين في التحليل ، ومما يؤكد ذلك أنهم عرفوا الجملة بأنها : " الكلام المفيد الذي لبعض أجزائه معان مستقلة باعتبارها ألفاظًا لا اعتبارها أحكامًا إيجابية " (٣) .

وقد عرف أحد الباحثين الجملة بقوله : هي الحد الأدنى من الكلمات التي تحمل معنى يحسن السكوت عليه " (٤) ، وهي تتكون من مسند ومسند إليه ، وتفيد معنى تامًا يحسن الوقف عليه والسكوت عنده ، وهذا هو الحد الأدنى لما تتكون منه

---

(١) علم اللغة العربية ص ١٣ .

(٢) المفصل في علم العربية لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ص ٣٢ .

(٣) مناهج البحث ص ١٥ .

(٤) الوظائف الدلالية ص ٤٤ .

الجملة ، أما الحد الأقصى فليس له حد معين يمكن أن يحدد به ؛ ولهذا قيل : " وقد كان على النحاة أن يحددوا أدنى قدر تنعقد به الجملة كلامًا مفيدًا ، ولم يكن عليهم ـ بطبيعة الحال ـ أن يحددوا الجملة الطويلة ؛ لأنها لا تنتهي بحد معين يجب التوقف عنده ، ولكنهم حددوا العناصر غير المؤسسة التي يتم بها إطالة الجملة وتشابك بنائها ، بحيث تصبح جملة مركبة لا بسيطة " (١) .

وقد عرف ابن مالك الكلام بقوله : " والكلام ما تضمن من الكَلِم إسنادًا مفيدًا مقصودًا لذاته " (٢) .

فقوله ما تضمن من الكلم " يخرج الرمز والخط والإشارة فليست بكلام اصطلاحًا ، وخص الكلم دون اللفظ والقول لأن اللفظ يشمل مهمل والمستعمل ، والقول يشمل الاعتقاد مجازًا .

وقوله : " إسنادًا " يعني ما كان مؤلفًا من كلمتين فصاعدًا ، وقوله : " مفيدًا " يخرج ما لا فائدة منه ، وقوله : " مقصودًا لذاته " يخرج كلام النائم .

وقد عرف ابن جني الكلام بقوله : " أما الكلام فكل لفظ مستقل بنفسه ، مفيد لمعناه ، وهو الذي يسميه النحويون الجمل ، نحو : زيد أخوك ، وقام محمد ، وضرب سعيد ، وفي الدار أبوك ، وصه ، ومه ، ورويد ، وحاءِ وعاءِ في الأصوات ، وحسِّ ، ولَبِّ ، وأفّ ، وأوَّه ، فكل لفظ استقل بنفسه وجنيت منه ثمرة معناه فهو كلام " (٣) ، وهذا التعريف لا يخرج عن نظرة النحويين للكلام ، ولم يزد عما قالوه في هذه المسألة .

---

(١) الوظائف الدلالية ص ٤٦ .
(٢) شرح التسهيل ١ / ٥ .
(٣) الخصائص ١ / ١٨ .

ونظرة النحويين ـ ومن سلك مسلكهم ـ عند تعريف الكلام ، هي نظرة تراعي أن الكلام حقيقة موجودة بالفعل ، لكن هناك عناصر يشتمل عليها الكلام ينبغي أن تراعى عند تعريف الكلام باعتباره حدث لغوي ، وأول هذه العناصر الإشارة إلى المتكلم أو منشئ هذا الكلام ، ثم الإشارة إلى وظيفة الكلام والغرض منه ولو إجمالًا ، ثم الإشارة إلى الجانب الاجتماعي الذي تتفق عليه الجماعة المعينة وأن يتفق هذا الكلام مع الضوابط العامة التي يسير عليها الكلام عند هذه الجماعة .

وهناك بعض التعريفات التي حاولت أن تغطي بعض هذه العناصر ، ومن تلك التعريفات تعريف ابن سنان الخفاجي الذي أشار إلى منشئ الكلام أو المتكلم فقال : " وحده ـ أي : الكلام ـ ما انتظم من حرفين فصاعدًا من الحروف المعقولة ، إذا وقع ممن تصح منه أو من قبيله الإفادة " [١]، فقد اشتمل التعريف على أبرز عناصر الكلام وهو المنشئ أو المتكلم وقيده بأنه تصح منه الإفادة وتمام المعنى ، وقال : " واشترطنا وقوع ذلك ممن تصح منه أو من قبيله الإفادة ؛ لئلا يلزم عليه أن يكون ما يسمع من بعض الطيور كالببغاء وغيرها كلامًا "[٢] .

وهناك تعريفات أشارت إلى بعض الوظائف التي يؤديها الكلام ، ومن ذلك التعريف القائل بأن " الكلام : هو عملية إحداث الأصوات الكلامية ؛ لتكون كلمات أو جمل لنقل المشاعر والأفكار من المتكلم إلى السامع " [٣] ، فقد أشار التعريف إلى الرموز أو العلامات الصوتية ، وإلى أبرز الوظائف التي يؤديها الكلام وهي نقل المشاعر والأفكار ، ولم يترك الإشارة إلى المنشئ أو المتكلم ، وأضاف السامع إلى التعريف لتتم عملية التواصل أو التوصيل .

---

(١) سر الفصاحة ص ١٣ .

(٢) السابق الصفحة نفسها .

(٣) معجم علم اللغة النظري وضع د/ محمد علي الخولي ص ٢٦٤ .

والتواصل جانب اجتماعي بارز ينتج عن الكلام ؛ وقد تم التصريح به في بعض التعريفات ومنها التعريف القائل بأن : " الكلام : هو أي تواصل من خلال نسق من الرموز الصوتية الاصطلاحية يأخذ شكل المنطوق " [١] ، ومن التعريفات التي جعلت التوصيل أبرز عناصر تعريف الكلام التعريف القائل بأن " الكلام : هو الاستعمال الفردي للغة ، بقصد توصيل رسالة ما " [٢] .

فالنحوي عينه على القاعدة المسند والمسند إليه والعلاقة التي تتحقق بها الفائدة ، أما اللغوي فينظر إلى الكلام على أنه حدث من منشئ عن طريق أصوات لغوية تكون كلمات أو جملًا بغرض التواصل لأداء وظائف محددة .

---

(١) ينظر : سيكلوجية اللغة والمرض النفسي ص ٤٩ .

(٢) أسس علم اللغة لماريو باي ص ١١٥ .

المبحث الثاني

اللغة والكلام عند علماء العربية

يكاد يجمع علماء العربية القدامى على أنه لا يوجد فرق واضح بين اللغة والكلام ، فاللغة هي الألفاظ الموضوعة للمعاني ، والألفاظ هي المكون للجمل والعبارات والتي هي بدورها مادة الكلام الذي يستعمل بين متخاطبين أو أكثر ، والكلام هو ما تركب من كلمتين أو أكثر لإفادة معنى يحسن السكوت عليه ، ولا يتأتى ذلك إلا في حالة النطق والأداء لمعنى يفهمه السامع .

ومما يدل على التداخل بين اللغة والكلام أنهم قالوا بأن أقسام الكلام ثلاثة : الاسم والفعل والحرف ، وفي الحقيقة هي أقسام اللغة وليست أقسام الكلام ، ودليل آخر على الترابط والتشابك بين اللغة والكلام هو أن ابن جني عرف اللغة بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، وفي الحقيقة ــ أيضًا ــ أن هذا تعريف للكلام أكثر من كونه تعريفًا للغة .

فالقدامى من اللغويين العرب لم يضعوا حدودًا فاصلة بين اللغة والكلام ، وذلك لما بينهما من تداخل وترابط وتماسك ، حتى الذين فرقوا بين اللغة والكلام باعتبار اختلاف اللفظين والمصطلحين رأوا أن اللغة هي الألفاظ الموضوعة للمعاني ، وتختزن في الذاكرة بعد سماعها من المحيطين بالإنسان ، وتظهر على هيئة ذخيرة في المعجم ، وينتقي الإنسان منها ما يريد تأليفه لأداء معان يحتاج إلى تبليغها وتوصيلها للآخرين وفي هذا الحالة يسمى كلامًا ، فما بين اللغة والكلام من اتصال وتدخل يجعل من الصعب وضع حدود فاصلة بينهما .

ومن ذلك يتبين أن علماء العربية يرون أن اللغة والكلام كلاهما يعتمد على المحصلة اللغوية المختزنة في العقل ، وكلاهما ـ أيضًا ــ مادي ، فاللغة ألفاظ مفردة ، والكلام ألفاظ مركبة ، أما فيما يتعلق بالفردية والجماعية ، فألفاظ اللغة تبدأ

بالفردية بإنشاء الأفراد أو المؤسسات حتى يقبلها أبناء المجتمع فتضاف إلى الذخيرة اللغوية وإلى معجمات اللغة فتصبح جماعية ، أما الكلام فلا شك أنه عمل فردي لكنه حتى يعترف به وبصحته فلا بد أن يتفق والضوابط العامة لتلك اللغة التي يتم التكلم بها .

وعلى الرغم من الشعور بالخصائص والسمات المميزة لكلا المصطلحين ، بل وحتى على الرغم من التعريف المنفصل لكلتا الكلمتين إلا أن الترابط والتماسك بينهما يجعل من العسير الفصل بينهما، كما أن الفصل بينهما ليس له أهمية تحتم مراعاته عند أصحاب الرأي القائل بعدم التفريق بينهما .

وجل اللغويين العرب القدامى ــ إن لم يكن جميعهم ــ كانوا يرون أن الكلام المستعمل هو مجال الدراسة ومحط نظر الدارسين والباحثين ، وهو الذي يمكن الحكم عليه بالصواب والخطأ ، وهو الجانب المادي الذي يمكن أن يفسر ويفهم ، ولذا نجد سيبويه يعقد بابًا للحديث عن الكلام أو الكلم فنراه يقول : " هذا باب علم ما الكلم من العربية " ، وقال : " فالكلم : اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل "[١] .

وإذا نظرنا إلى أن الكلام ما هو إلا استعمال مركب لمفردات اللغة نجد أن هذا التقسيم الذي ذكره سيبويه إنما هو تقسيم للغة وليس تقسيمًا للكلام ، يقول د / تمام حسان :" ويجب أن ننبه هنا إلى أن ما يسميه النحاة أقسام الكلام وهم يقصدون الاسم والفعل والحرف ليس في الواقع إلا أقسام اللغة (فقول صاحب الألفية الكلام وما يتألف منه يجب أن يصير إلى اللغة وما تتألف منه) " [٢] .

ويتبين من ذلك أن اللغويين العرب القدامى لم يضعوا حدودًا فاصلة بين اللغة والكلام

---

(١) الكتاب ١ / ١٢ .

(٢) مناهج البحث في اللغة ص ٤٠ .

في الجانب التطبيقي عند دراسة اللغة ، أما في الجانب النظري فنراهم فرقوا بين مدلوليهما بناء على اختلاف لفظيهما فنجد أنهم عرفوا اللغة بأنها الألفاظ المفردة الدالة على معنى ، والكلام هو الألفاظ المركبة الدالة على معنى .

وعندما جاء سيبويه (ت ١٨٠ هـ) فتح المجال للتعرف على أهم خصائص اللغة وهى العلاقات بين المفردات والتي لا تتم إلا بوعي المتكلم وبإدراكه التام لطبيعة تلك العلاقات ولدورها في ووضوح المعنى واكتماله ، إلا أنه نسب هذا النظام للكلام وليس للغة .

أما ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) فقد ساق نصًا يمكن أن يفهم منه أنه فرق بين اللغة والكلام حيث جعل الكلام مسوقًا على شرط لغة من اللغات ، كما أنه أومأ إلى أن الإشارات يمكن أن تؤدي وظيفة اللغة وهو أمر أقره الدرس اللغوي الحديث ، يقول : " فإن قال قائل : فقد يقع البيان بغير اللسان العربي ؛ لأن كل من أفهم بكلامه على شرط لغته فقد بين ، قيل له : إن كنت تريد أن المتكلم بغير العربية قد يعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده فهذا أخس مراتب البيان ؛ لأن الأبكم قد يدل بإشارات وحركات له على أكثر مراده ، ثم لا يسمى متكلمًا فضلًا عن أن يسمى بينًا بليغًا " (١) .

ورصد د/ تمام حسان نقطتين مهمتين في كلام ابن فارس الذي نقله السيوطي ــ ونسبه د/ تمام إليه ــ فرق فيهما بين اللغة والكلام سواء أكان ذلك عن إدراك لهذه التفرقة أم عن غير إدراك يقول : " وهنا نقطتان هامتان من التفريق ، أولاهما : أن المتكلم إنما يتكلم على شرط لغة معينة بمعنى أنه يأتي بكلامه مصوغًا بحسب النظم الصوتية والصرفية والنحوية من مفردات هذه اللغة ومادتها ، فالكلام كما يبدو في

(١) الصاحبي ص ١٦ ، والمزهر ١ / ٣٢٢ .

نظره نشاط عضلي من رموز معينة موضوعة بحسب قواعد معينة هي اللغة ، وثانيتها أن الذي استعمل الإشارة يستعمل اللغة لا الكلام " [١] .

ثم جاء بعد ذلك الإمام عبد القاهر (ت ٤٧١ هـ) ووضع أصول نظرية النظم ، واقتفى أثر أسلافه من علماء العربية في نسبة العلاقات والنظام إلى الكلام وليس إلى اللغة .

ومن يطالع كتابي الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) : (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) ، يجد أن اللغة هي المفردات والكلمات التي وضعت وتعارف عليها الناس ، فهناك كلمات وضعت للدلالة على الأشياء ، وارتضتها الجماعة ، وتعارف عليها الناس هذه هي اللغة في نظر الجرجاني ، يقول: " ولو فرضنا أن تنخلع من هذه الألفاظ التي هي لغات دلالتها لما كان شيء منها أحق بالتقديم من شيء ، ولا تصور أن يجب فيها ترتيب ونظم"[٢] ، وقال: " إن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها "[٣] .

كما أن اللغة أو دراسة اللغة عند الإمام عبد القاهر تتناول الكلمات المفردة التي هي أوضاع اللغة ـ على حد قوله ـ واللهجات المتعددة والألفاظ الغريبة وهى من الأشياء التي يتم التوصل إليها بالحفظ وليس بإعمال الفكر وإمعان النظر فقد قال : " ومن ثمَّ لا يجوز لنا أن نعتد في شأننا هذا بأن يكون المتكلم قد استعمل من اللغتين في الشيء ما يقال : إنه أفصحهما ، أو بأن يكون قد تحفَّظ مما تخطيء فيه العامة ، ولا بأن يكون قد استعمل الغريب ؛ لأن العلم بجميع ذلك لا يعدو أن يكون علمًا باللغة ، وبأنفس الكلم المفردة ، وبما طريقه طريق الحفظ ، دون ما يستعان عليه

---

(١) مناهج البحث في اللغة ص ٥٥ .
(٢) دلائل الإعجاز ص ٥٠ .
(٣) السابق ص ٥٣٩ .

بالنظر ، ويوصل إليه بإعمال الفكر " [١] .

أما الكلام فهو تركيب هذه الكلمات ووضعها في جمل وعبارات وتنسب إلى متكلم للدلالة على غرضه ومقصوده ، والكلمات والجمل والعبارات لم توضع لتعرف في أنفسها ، بل للعلاقات التي تربط بينها ، والكلام يقتضي متكلِّمًا ومتكلَّمًا إليه ومتكلَّمًا عنه ، والعلاقات بين الكلمات ترجع إلى قصد المتكلم وتنسب إليه ، ولا تنسب إلى اللغة ، يقول عبد القاهر : " وذلك أن الإثبات إذا كان من شرطه أن يُقيَّد مرتين كقولك : إثبات شيء لشيء ، ولزم من ذلك أن لا يحصل إلا بالجملة التي هي تأليف بين حديث ومحدث عنه ، ومسند و مسند إليه ، علمت أن مأخذه العقل ، وأنه القاضي فيه دون اللغة ؛ لأن اللغة لم تأت لتحكم بحُكم أو لتُثبت وتنفي ، وتَنْقُض وتُبرم ، فالحكم بأن الضرب فعل لزيد ، أو ليس بفعل له ، وأن المرض صفة له ، أو ليس بصفة له ، شيء يضعه المتكلم ودعوى يدعيها ، وما يعترض على هذه الدعوى من تصديق أو تكذيب ، واعتراف أو إنكار ، وتصحيح أو إفساد ، فهو اعتراض على المتكلم ، وليس اللغة من ذلك بسبيل ، ولا منه في قليل ولا كثير"[٢] ، ويفهم من هذا النص ما يأتي :

أ ــ فصل الجرجاني بين اللغة والعقل ، حيث إن اللغة تتجلى في الأداء الكلامي ، أما العلاقات التي تربط بين المفردات ، والصلات التي تربط بين الجمل فهذا أمر مرجعه إلى العقل ، وإذا حدث خلل أو خطأ بين تلك العلاقات فإنما مرده إلى المتكلم المستعمل لتلك اللغة ، وليس إلى اللغة ذاتها .

ب ــ أخرج العوامل النفسية والاجتماعية والفلسفية من اللغة أو من الدراسة اللغوية ، فاللغة هي الألفاظ والمعاني أما ما يؤثر في إنتاج الجمل من وسائل تقف وراء الحدث

---

(١) السابق ص ٣٩٦ .

(٢) أسرار البلاغة ص ٣٧٣ .

اللغوي فهي خارجة عن ماهية اللغة .

ج ــ أشار الجرجاني إلى أبرز خصائص الكلام وهو الفردية ونسبته إلى متكلم بعينه ، وإن كان ذلك لا يمنع من أن يكون موضعًا للبحث والدراسة .

د ــ العلاقات بين الكلمات والجمل تعود إلى قصد المتكلم وليس إلى اللغة ، قال : " ومتى وصفنا بالمجاز الجملةَ من الكلام ، كان مجازًا عن طريق المعقول دون اللغة ، وذلك أن الأوصاف اللاحقة للجمل من حيث هي جمل لا يصح ردها إلى اللغة ولا نسبتها إلى واضعها ؛ لأن التأليف هو إسناد فعل إلى اسم أو اسم إلى اسم ، وذلك شيء يحصل بقصد المتكلم " (١) .

وهو لم يصل إلى الفكرة التي ترى أن اللغة موجودة في الأذهان وأنها شيء مجرد يوجد في العقل الجمعي وتقوم على النظام والعلاقات كما يرى دي سوسير ، وإنما اللغة عنده مجموع المفردات التي تواضع عليها وعلى معانيها المجتمع ، وإن كان يتفق مع دي سوسير في أن الكلمات المفردة هي مجرد علامات وسمات للدلالة على الأشياء يقول : " لأن اللغة تجري مجرى العلامات والسمات ، ولا معنى للعلامة والسمة حتى يحتمل الشيءُ ما جُعلت العلامة دليلًا عليه وخلافه ، فإنما كانت (ما) ـ مثلًا ـ علمًا للنفي ؛ لأن ههنا نقيضًا له ، وهو الإثبات ، وهكذا إنما كانت (من) لما يعقل لأن ههنا ما لا يعقل " (٢) .

وقال : " ليت شعري هل كانت الألفاظ إلا من أجل المعاني ؟ وهل هي إلا خدم لها ومصرفة على حكمها ؟ أو ليست هي سماتٍ لها وأوضاعًا قد وضعت لتدل عليها ؟ فكيف يتصور أن تسبق المعاني وأن تتقدمها في تصور النفس ؟ إن جاز

---

(١) السابق ص ٤٠٨ .

(٢) أسرار البلاغة ص ٣٧٦ .

ذلك جاز أن تكـون أسامي الأشياء قـد وضعت قبل أن عـرفت الأشياء وقبل أن كانت " [١] .

وقد أدرك الإمام عبد القاهر أن المعاني هي التي تختزن في الأذهان وتتصور في النفس ، ثم تأتي الألفاظ بعد ذلك لإظهار هذا الشيء الكامن في النفس وإخراجه إلى عالم الحس فقال : " لا يُتَصوَّر أن تَعرِف للفظ موضعًا من غير أن تعرف معناه ، ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيبًا ونظمًا ، وأنك تتوخى الترتيب في المعاني وتعْمِل الفكر هناك ، فإذا تمَّ لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها ، وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكْرًا في ترتيب الألفاظ ، بل تجدها تترتَّبُ لك بحكم أنها خدم للمعاني ، وتابعة لها ، ولاحقة بها ، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس ، علمٌ بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق " [٢] .

أما الكلام فهو في نظر الجرجاني ما تألف من كلمتين فأكثر للإخبار عن شيء ، وقال : " الألفاظ لا تُفيد حتى تؤلف ضربًا خاصًا من التأليف ، ويُعْمَدُ بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب " [٣] ، وذلك يقتضى مخْبِرًا ومخْبَرًا عنه وخبرًا ، يقول : " واعلم أن معاني الكلام كلها معانٍ لا تُتَصور إلا فيما بين شيئين ، والأصل والأول هو الخبر ، وإذا أحكمت العلم بهذا المعنى فيه ، عرفته في الجميع ، ومن الثابت في العقول والقائم في النفوس أنه لا يكون خبر حتى يكون مخبرٌ به ومُخْبرٌ عنه ؛ لأنه ينقسم إلى إثبات ونفي ، والإثبات يقتضي مثبتًا ومُثبتًا له ، والنفي يقتضي منفيًا ومنفيًا عنه ، فلو حاولت أن تتصور إثبات معنى أو نفيه من دون أن يكون هناك

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٤١٧ .

(٢) السابق ص ٥٤ .

(٣) أسرار البلاغة ص ٤ .

مثبتٌ له ومنفيٌ عنه حاولت مالا يصحُّ في عقل ، ولا يقع في وهْم ، ومن أجل ذلك امتنع أن يكون لك قصدٌ إلى فعل من غير أن تريد إسناده إلى شيء مظهر أو مقدر، وكان لفظك به إذا أنت لم تُرد ذلك وصوتًا صوَّته سواء " [١] .

وهذا يتسق مع اعتباطية أو اصطلاحية العلامة عندما قال : " وذلك أن نظم الحروف هو تواليها في النطق ، وليس نظمها بمقتضى عن معنى ، ولا الناظم لها بمقتفٍ في ذلك رسمًا من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحرَّاه ، فلو أن واضع اللغة كان قد قال (ربض) مكان ضرب لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد " [٢] .

وقد عرف الإمام الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) الكلام بأنه :" المركب من كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى ، وذلك لا يتأتى إلا في اسمين كقولك : زيد أخوك ، وبشر ضاحك ، أو في فعل واسم نحو قولك : ضرب زيد وانطلق بكر ، ويسمى الجملة "[٣]، وقام ابن يعيش (ت ٦٤٣هـ) بتوضيح هذا التعريف فقال : " اعلم أن الكلام عند النحويين عبارة عن كل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه ويسمى الجملة " [٤] .

وما دام الكلام ارتبط بالجملة فإنه يكون قد ارتبط بالقاعدة وطريقة الإسناد أكثر من كونه حدثًا كلاميًا أو كونه اللغة في مجال الاستعمال .

ويتبين مما سبق أن علماء اللغة من اللغويين العرب القدامى لم يفرقوا تفريقًا بينًا بين اللغة والكلام فكلاهما يعتمد على الأصوات والكلمات والصيغ والعلاقات النحوية ، وكلاهما مادي فاللغة مجموعة في المعجمات العربية وتدرك بحاسة السمع عند نطق وحاسة البصر عند كتب ، والكلام ـ أيضًا ـ مادي لأنه ينطق بالفم ويسمع بالأذن ،

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٥٢٦ ، ٥٢٧ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٤٩ .

(٣) المفصل ص ٣ ، وشرح المفصل ١ / ١٨ .

(٤) شرح المفصل ١ / ٢٠ .

وكلاهما يؤدي وظيفة ويعبر عن الأغراض والحاجات ، ولم نجد في أقوال المتقدمين فصلًا بينًا بين اللغة والكلام ، ولم يكن هذا الأمر موضع نظر منهم .

وبدأ التفريق بين اللغة والكلام عندما عرفوا اللغة بأنها : هي الألفاظ الموضوعة للمعاني ، والكلام هو تأليف وتركيب هذه الألفاظ ، والفرق بينهما هو فرق بين ما هو مفرد وما هو مركب وليس أكثر من ذلك ، فلا نجد إشارة إلى أن اللغة مختزنة في الذهن أو أن اللغة جماعية أو اجتماعية دون الكلام .

وقد أكد غير واحد من علماء العربية على أن اللغة ما هي إلا ألفاظ موضوعة للمعاني ، ومن ذلك قول ضياء الدين ابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ) : " اللغة إنما هي وضع الألفاظ في دلالتها على المعاني ، أي : وضع الأسماء على المسميات ؛ لتكون منبئة عنها عند إطلاق اللفظ "[١] .

وعلم اللغة معناه هو ذلك العلم الذي يدرس الموضوعات اللغوية من حيث طريقة الوضع وبيان المعنى المفرد ، أما المعنى في حالة التركيب فهو علم يتناوله فقه اللغة ، وقد عرف ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) علم اللغة بقوله : " هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية " ، والمقصود بالموضوعات اللغوية هو جمع ألفاظ اللغة وبيان معانيها التي وضعت من أجلها في اللسان العربي ، ويتبين ذلك من قوله : " وذلك أنه لما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب ، واستنبطت القوانين لحفظها ... ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم ومخالطتهم ، حتى تأدَّى الفساد إلى موضوعات الألفاظ ، فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضعه عندهم ميلًا مع هجنة المستعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية "[٢] .

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ١ / ٥١ .

(٢) المقدمة ٢ / ٣٧٠.

ولا خلاف بين اللغويين في وضع الألفاظ المفردة ، مثل وضع الإنسان للحيوان الناطق ، ونحو وضع الفعل شرب للقيام بهذا الحدث في الزمن المخصوص .

لكن الخلاف في التراكيب هل هي موضوعة أو ليست بموضوعة ، فجمهور علماء اللغة على أن المركبات غير موضوعة " ولهذا لم يتكلم أهل اللغة في المركبات ولا في تأليفها ، وإنما تكلموا في وضع المفردات ، وما ذاك إلا لأن الأمر فيها موكول إلى المتكلم بها ، واختاره فخر الدين الرازي ، وهو ظاهر كلام ابن مالك " [١] ، وقيل : إن المركبات موضوعة كالمفردات وهو رأي مرجوح واستدلوا على ذلك بقولهم : " لو كان حال الجمل كحال المفردات في الوضع لكان استعمال الجمل وفهم معانيها متوقفًا على نقلها عن العرب ، كما كانت المفردات كذلك ، ولوجب على أهل اللغة أن يتتبعوا الجمل ويودعوها كتبهم ، كما فعلوا ذلك بالمفردات ، ولأن المركبات دلالتها على معناها التركيبي بالعقل لا بالوضع " [٢] .

وذهب الإمام الزركشي إلى أن العرب وضعت أنواع المركبات وليست كل المركبات فقال : " والحق أن العرب إنما وضعت أنواع المركبات ، أما جزئيات الأنواع فلا ، فوضعت باب الفاعل ؛ لإسناد كل فعل إلى من صدر منه ، أما الفاعل المخصوص فلا ، وكذلك باب إن وأخواتها أما اسمها المخصوص فلا ، وكذلك سائر أنواع التراكيب " [٣] ، واختص علماء النحو ببيان الموضوعات المركبة ، واختص علماء اللغة ببيان الموضوعات المفردة ، " والفرق بين علم النحو وبين علم اللغة أن علم النحو موضوعه أمور كلية ، وموضوع علم اللغة أشياء جزئية ، وقد اشتركا معًا في الوضع " [٤] .

---

(١) المزهر ١ / ٤٣ .
(٢) السابق ١ / ٤٤ .
(٣) السابق ١ / ٤٥ .
(٤) السابق ١ / ٤٣ .

ثم قام ابن خلدون بسرد أوائل ما ألف من المعجمات العربية ، ومعلوم أن المعجمات إنما وضعت لجمع ألفاظ اللغة وبيان معانيها ، فلم يكن علم اللغة في نظر ابن خلدون يعني أكثر من بيان معاني الكلمات التي تعارف عليها العرب الفصحاء .

وهو هنا وضع يده على أمر جوهري وهو بيان المعاني في أصل الوضع اللغوي ، وهذا يذكرنا بعبارات الجرجاني التي يصرح فيها بأن استعمال مصطلح اللغة يرتبط كثيرًا بالمعاني التي استعملها العرب في أصل الوضع اللغوي .

ثم ذكر ابن خلدون أن هناك فرقًا بين علم اللغة وفقه اللغة ، وخص علم اللغة ببيان معاني الألفاظ في أصل الوضع اللغوي ، أما فقه اللغة فهو يتناول استعمال هذه الكلمات في حالة التركيب والسياق فقال : " ثم لما كانت العرب تضع الشيء على العموم ، ثم تستعمل في الأمور الخاصة ألفاظًا أخرى خاصة بها ، فرق ذلك عندنا بين الوضع والاستعمال ، واحتاج إلى فقه في اللغة عزيز المأخذ ... واختص بالتأليف في هذا المنحى الثعالبي ، وأفرده في كتاب له سماه : فقه اللغة وهو من آكد ما يأخذ به اللغوي نفسه أن يحرف استعمال العرب عن مواضعه ، فليس معرفة الوضع الأول بكاف في التركيب حتى يشهد له استعمال العرب لذلك " [١] .

ولا ينبغي أن يفهم قول ابن خلدون : الموضوعات اللغوية ، وقوله : الألفاظ الموضوعة ، وقوله : الوضع والاستعمال أنه كان يرى أن اللغة نشأت عن طريق المواضعة والاصطلاح ، فقد نفى هذا الاحتمال نفيًا صريحًا فقال : " واعلم أن النقل الذي تثبت به اللغة ، إنما هو النقل عن العرب أنهم استعملوا هذه الألفاظ لهذه المعاني، لا تقل : إنهم وضعوها ؛ لأنه متعذر وبعيد ، ولم يعرف لأحد منهم "[٢] .

---

(١) المقدمة ٢ / ٣٧٢.

(٢) المقدمة ٢ / ٣٧٣.

ومعنى قوله : " متعذر وبعيد ولم يعرف لأحد منهم " ، أي أن وضع الألفاظ للدلالة على المعاني لم يعرف أن واحدًا من العرب قد قام بذلك ولم ينسب لواحد منهم أنه وضع ألفاظًا في اللغة لم تكن موجودة ؛ لأن ذلك أمر صعب ومستبعد في رأي ابن خلدون .

وبمفهوم المخالفة يتبين أن ابن خلدون كان يرى أن اللغة إنما نشأت بالتوقيف والوحي والإلهام من الله تعالى .

فقد خص علم اللغة بالعلم الذي يعنى بمتن اللغة ، أما اللغة في حالة الاستعمال والتركيب وتوقف المعاني على قصد المتكلم والظروف والملابسات التي تحيط بالجمل والعبارات في أثناء النطق (الكلام) ، فهذا الأمر مشترك بين علمي فقه اللغة والبلاغة .

وقد ألمح ابن خلدون إلى اللغة ولكن ليس باعتبارها لغة معينة ، وإنما باعتبارها ظاهرة اجتماعية ، وهو ما عبر عنه بالملكة ، فقال : " اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني ، وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة ، أو نقصانها ، وليس ذلك بالنظر إلى المفردات ، وإنما بالنظر إلى التركيب ، فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبق على مقتضى الحال ، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع ، وهذا هو معنى البلاغة " [1] ، وهذه الملكة هي التي أشار إليها دي سوسير عند تفريقه بين اللغة باعتبارها ملكة وبين اللغة المعينة فقال : " وبهذه الطريقة من طرق التقسيم يستطيع المرء أن يقول : إن اللغة تبنى على ملكة في طبيعتنا ، على حين نجد اللغة المعينة شيئًا مكتسبًا متعارفًا عليه

---

(١) المقدمة ٢ / ٣٧٨.

يمكن أن يخضع للغريزة الطبيعية بدل أن يتقدم عليها " [١] ، إلا أن ابن خلدون يراها ملكة في اللسان ، ودي سوسير يراها ملكة في الذهن بمعنى المقدرة في النفس أو في الذات .

ومن ذلك يتبين أن ابن خلدون فرق بين اللغة بمعنى اللغة المعينة ، وبين الكلام ، فاللغة هي المفردات الموضوعة للمعاني ، أما الكلام فهو تركيب هذه المفردات في الاستعمال الموافق لمقتضى الحال والموقف والسياق فقد تحدث عن أولئك الذين تكونت لديهم الملكة اللغوية من الأعاجم من أمثال سيبويه والزمخشري وذكر أنهم بنشأتهم في المجتمع العربي قد تكونت لديهم هذه الملكة فكأنهم من أبناء تلك اللغة الأقحاح قال : " فإن عرض لك ما نسمعه من أن سيبويه والفارسي والزمخشري، وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجامًا مع حصول هذه الملكة لهم ، فاعلم أن أولئك القوم الذين تسمع عنهم إنما كانوا عجمًا في نسبهم فقط ، وأما المربى والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب ومن تعلمها منهم فاستولوا بذلك من الكلام على غاية لا شيء ورائها ، كأنهم في أول نشأتهم بمنزلة الأصاغر من العرب الذين نشؤوا في أجيالهم حتى أدركوا كنه اللغة وصاروا من أهلها ، فهم وإن كانوا عجمًا في النسب فليسوا بأعجام في اللغة والكلام " [٢] .

وقد عرف ابن خلدون اللغة مرتين ، إحداهما : بمعنى الألفاظ الموضوعة للمعاني، كما سبق ، وعرفها مرة أخرى بمعنى الكلام فهي عبارة المتكلم عن مقصوده ، فقال: " اعلم أن اللغة ــ في المتعارف ــ هي عبارة المتكلم عن مقصوده ، وتلك العبارة فعل لساني ناشئة عن القصد لإفادة الكلام ، فلا بدَّ أن تصير ملكة متقررة في العضو

---

(١) مناهج البحث في اللغة ص ٣٤ .

(٢) المقدمة ٢ / ٣٨٨ ، ٣٨٩ .

الفاعل لها ، وهو اللسان ، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم " [١] ، فهذا التعريف يصلح لأن يكون تعريفًا للغة ، ويصلح ـ أيضًا ـ أن يكون تعريفًا للكلام .

ومن ذلك يتبين أن المتقدمين من علماء اللغة العرب كانوا يرون أن اللغة هي مجموعة الألفاظ الموضوعة للمعاني وهى مختزنة في عقول أبناء اللغة كمفردات لها معانٍ محددة أو موضوعة في مؤلف يطلق عليه المعجم يقوم بجمع أكبر قدر ممكن من الألفاظ ثم يقوم بترتيبها وشرح معانيها ، ومن يقوم بذلك يطلق عليه بأنه لغوي نسبة إلى اللغة ، والمتخصصون والمشتغلون في هذا الأمر هم أهل اللغة ، نلمح ذلك من قول الإمام عبد القاهر الجرجاني : " وعلى ذلك قول أهل اللغة : عين جَمُود : لا ماء فيها ، وسنة جَماد : لا مطر فيها ، وناقة جماد : لا لبن فيها " [٢]

ومن الواضح أن المتقدمين من علماء العربية كان لديهم إحساس بوجود فرق بين اللغة والكلام ، لكن هذا الفرق لا يتعدى كون اللغة هي تلك المفردات التي وضعت لتدل على المعاني ، لكن هذه المفردات قد تكون شيئًا مجردًا في أذهان أبناء اللغة ، بمعنى أن كل واحد من أبناء اللغة يكون لديه قدر من المفردات مخزون في ذاكرته يستخرج منه ما يفي بحاجاته وذلك عن طريق تركيب بعض تلك المفردات وتأليف جمل قصيرة أو طويلة للتواصل بين الإنسان ونفسه عن طريق حديث النفس ، أو بين الإنسان وخالقه عن طريق الدعاء والاستغفار ، أو بين الإنسان وأخيه الإنسان عن طريق المحادثة والخطاب .

وقد تكون شيئًا ماديًا محسوسًا يجمع في معجمات اللغة ويرتب ويشرح ، وبذلك يظهر الفرق بين نظرة القدامى ونظرة المحدثين حيث إن القدامى يرون اللغة أنها ما يجمع في المعجمات وما يتعلق بذلك من بيان الغريب ومعاني الكلمات ، أما

---

(١) المقدمة ٢ / ٣٦٧ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٧٠ .

المحدثون فيرون اللغة شيئًا مجردًا في أذهان أبناء تلك اللغة ، وإذا خرج إلى الوجود فهو عمل فردي ويسمى كلامًا ولا يسمى لغة ، وبذلك تنتقل من حالة التجريد في الذاكرة إلى حالة الاستعمال ونطق المتكلم وسماع المتلقي ، وفي هذه الحالة إذا تألف الكلام وتركب تركيبًا يتوافق مع ضوابط وقواعد تلك اللغة وأفاد فائدة يحسن السكوت عليها تكون كلامًا ، ومجمل هذه القضية أن الألفاظ إذا كانت في الذاكرة أو في القاموس أو المعجم فهي لغة ، وإذا تحولت إلى حالة الاستعمال والتركيب المفيد للمعنى فهي كلام ، هذه نظرة النحويين والبلاغيين العرب القدامى للغة والكلام .

والكلام عندهم هو مجال الدراسة ومحط نظر التحليل اللغوي ، أو بمعنى آخر الأحداث الكلامية هي التي تختص بتأليف الجمل والعبارات والنصوص ، وتتكون العلاقات بين تلك الجمل وهى التي يمكن ملاحظتها ودراستها دراسة علمية ، ويرون أن الكلام الذي يخضع للدراسة العلمية يشترط فيه الالتزام بالضوابط والقواعد المستنبطة من كلام المتقدمين من أبناء اللغة ، وعلى أبناء اللغة إعادة إنتاجها وفقًا لما سار عليه المتقدمون من أبنائها إبان عصور الاحتجاج اللغوي .

ولا شك أن هذه النظرة تفيد أن اللغويين العرب يهتمون بالجانب الشكلي لدراسة اللغة ، دون النظر إلى الجانب العقلي أو التأملي في دراستها ، وبدلًا من الدراسة العقلية أو السلوكية أو التأملية فإن جل اهتمام اللغويين العرب منصب على دراسة العناصر اللغوية عن طريق دراسة المكونات الصوتية ، والبنية اللغوية ، والتراكيب النحوية والمعاني الدلالية .

وهذا المنهج في دراسة اللغة ذكره بعض اللغويين الغربيين ، وساروا عليه واعتبروه أنه هو المنهج الذي يصلح لدراسة اللغة دراسة علمية ، ومن هؤلاء :

١ ـــــ بواز :

وقد خالف بواز (Bous) رأي دي سوسير ، وذهب إلى أن الكلام وهو الذي

يدخل في مجال الدراسة اللغوية ، وهو الذي يمكن رصده وتحليله وليس اللغة ، فهو " يرى أن بحث اللغة ينبغي أن يتجه إلى الكلام لا إلى اللغة ، مخالفًا بذلك دي سوسير شكليًا وليس جوهريًا ؛ لأن الكلام الفرد هو الشيء الذي يمكن رصده وبحثه من هذه السبيل " (١) .

٢ ــ بريجيته بارتشت :

لم تقبل الباحثة بريجيته بارتشت قول دي سوسير بأن اللغة نظام من علامات عناصره مترابطة ولذلك هي التي تخضع للدراسة في مجال علم اللغة ، أما الكلام فليس له نظام ؛ ولذا لا يدخل في مجال علم اللغة وإن دخل فإنه يسمى عندئذ (علم لغة الكلام) ، وأشارت بارتشت إلى أن الكلام لا يخلو من نظام وإلا لما أفاد ولما قبله السامع ، وقالت : " ليست اللغة وحدها نظامًا ، ففي حال المتكلم المفرد ، والوقعة اللغوية المعينة ـ أيضًا ـ يجب أن يوجد التزام بنظام ، وهذه الأنظمة يجب أن تكون متساوية تقريبًا لدى المتكلمين أو المستمعين الفرادى حين تقوم اللغة بوظيفة وسيلة الإفهام ، ويعني ذلك أن الموضوع الأساسي لدراسات علم اللغة هو اللغة بمعنى اللغة المعينة ، وأنها لا يجوز أن تكون الموضوع الوحيد للدراسة ، فوقائع الكلام ــ أيضًا ــ يجب أن تبحث ، وفضلًا عن ذلك لا توجد اللغة في ذاتها ، بل لا يوجد دائمًا إلا الكلام المحدد ، ويمكن بطريق دراسته فقط النفاذ إلى اللغة " (٢) .

كما ذهب بعض المحدثين من اللغويين العرب إلى القول بأن اللغة والكلام لا يمكن الفصل بينهما ، ومن هؤلاء د. كمال بشر فقد قال : " ولكن أكثر اللغويين المعاصرين ـ وفي مقدمتهم أتباع المدرسة الإنجليزية الحديثة بريادة أستاذنا فيرث ــ لا يرون هذا الرأي ، ولا يأخذون به ، فالتفرقة بين اللغة (أي : اللغة المعينة)

---

(١) علم لغة النص ص ٣٥ .

(٢) مناهج علم اللغة ص ١٢٤ .

والكلام عندهم ليس له ما يبرره من حيث المنطق والواقع ، إذ هما جانبان لشيء واحد ، أو هما مصطلحان يطلقان على مسمى واحد، وكل منهما اجتماعي وفردي ، وكل منهما عقلي ومادي ،

وقد ساق د / كمال بشر بعض الحجج والأدلة التي ثبت أنه لا يمكن الفصل بين اللغة والكلام ، ويتمثل ذلك فيما يلي :

أولًا : أن اللغة والكلام بينهما تداخل وتشابك يحول دون الفصل بينهما ، " وهما متداخلان إلى درجة يصعب معها التفريق بينهما ، فكلام الفرد ليس إلا أسلوبًا أو مثلًا من كلام الجماعة ، وكلام الجماعة ليس إلا حصيلة كلام الأفراد " (١) .

ثانيًا : الفصل بين ما هو عقلي صرف وهو اللغة والمادي صرف وهو الكلام لا يستقيم مع النظرة العلمية الكلام وهو أنه يشترك فيه العمل العقلي والذهني والعمل العضوي ... ، يقول د / كمال بشر : " كما أن هذه المدرسة تنكر التفريق بين اللغة والكلام لأسباب منهجية أخرى منها أن هذا التفريق يتضمن أن بعض عناصر الكلام الإنساني عناصر عقلية محضة (وهذه تتمثل في اللغة على الرأي القائل بالتفريق) وبعضها الآخر مادي صرف (وهذه تتمثل في الكلام) وهذه الثنائية في عناصر الكلام الإنساني لا تعترف بها هذه المدرسة التي تؤمن بأن الكلام (من أي وجهة نظرت إليه) وحدة متكاملة الأجزاء والعناصر ولا يجوز الفصل بين جوانبه " (٢)

ثالثًا : الذي يفرق بين اللغة والكلام بحجة أن اللغة جماعية أو اجتماعية والكلام فردي غفل عن حقيقة حتمية وهى أن الفرد ممثل للجماعة وينطق طبقًا لمعاييرها وما تقبله وترتضيه وإلا عد كلامه لغوًا ولم يحقق الغرض والهدف الذي قيل من أجله ،

---

(١) دور الكلمة في اللغة ص ٤١ .

(٢) دور الكلمة في اللغة ص ٤١ .

يقول د / كمال بشر : " ومن هذه الأسباب ـ أيضًا ـ أن الفرد ـ في نظر هذه المدرسة ـ إنما هم جزء من بيئته وهو ممثل صحيح لها وهو في كلامه يراعي ـ بطريق شعوري أو لا شعوري ـ النماذج اللغوية التي تعارفت عليها الجماعة ، ومن ثم جاز لنا أن نعد لغته صورة صحيحة للغة الجماعة ، وهى لذلك جديرة بنفسها بالنظر والدراسة ، وإذا كان من الضروري أن نفرق بين الجانبين جاز لنا أن نسمي أحدهما " لغة الجماعة " والآخر " لغة الفرد " طبقًا للزاوية التي ننظر منها إلى الموضوع " (١) .

وهذا المنهج في النظر للغة والكلام يتوافق مع منهج تشومسكي الذي قسم العملية اللغوية إلى جانبين أحدهما: ما ينطق وينتجه الإنسان ويسمى البنية السطحية ، والآخر : العناصر الداخلية العقلية التي تدفع الإنسان إلى تفضيل لفظ على لفظ آخر أو اختيار تركيب على تركيب آخر وهو ما يسمى بالبنية العميقة ، وهذا المنهج يرتبط بما أسماه الكفاءة اللغوية والأداء الكلامي ، فالكفاءة اللغوية هي القدرة على تأليف وإنتاج الجمل ومعرفة معانيها ، بحث تكون موافقة للقواعد اللغوية ، والربط بين الأصوات اللغوية بطريقة مناسبة تتلاءم مع ضوابط اللغة ولا تخرج عنها ، أما الأداء الكلامي أو الأحداث الكلامية فهي التطبيق العملي والأداء الفعلي والتنفيذ المباشر لصياغة الكلام وفقًا لتلك القواعد المتعارف عليها في الكفاءة اللغوية .

وأشار د / تمام حسان إلى أوجه الفرق بين اللغة والكلام وأن بينهما بونًا شاسعًا ، وفصلًا بينا فقال: " الكلام عمل واللغة حدود هذا العمل ، والكلام سلوك واللغة معايير هذا السلوك ، والكلام نشاط واللغة قواعد هذا النشاط ، والكلام حركة واللغة نظام هذه الحركة ، والكلام يحس بالسمع نطقاً والبصر كتابة واللغة تفهم بالتأمل في الكلام ، فالذي نقوله أو نكتبه كلام ، والذي نقول بحسبه ونكتب بحسبه هو اللغة ،

---

(١) دور الكلمة في اللغة ص ٤٠ .

فالكلام هو المنطوق واللغة هي الموصوفة في كتب القواعد وفقه اللغة والمعجم ونحوها ، والكلام قد يحدث أن يكون عملاً فردياً ولكن اللغة لا تكون إلا اجتماعية " [١] ، هذا الكلام يؤيد التفريق بين اللغة والكلام ويضع حدودًا فاصلة بينهما ، لكنه لم يحدد أيهما يدخل في مجال علم اللغة ، هل اللغة وحدها كما رأي دي سوسير ، أو اللغة والكلام كلاهما ، ود / تمام لم يرد الدخول في هذه المسألة الشائكة ، وإنما صرح بأن دراسة الكلام ينبغي أن يكون لها مجالها الذي يختص بدراسة الكلام ، وذلك بمعزل عن دراسة اللغة ، وذلك عندما قال : " وإذا كان الكلام لا يدرس منفصلًا عن اللغة إلا عند اعتباره عملًا صوتيًا بحتًا ، مقطوع الصلة بالمعنى ، كما يحدث عند فحص المرضى بالحصر والعيوب النطقية والنفسية الأخرى ، واختبار أصوات المغنين والمذيعين وقبولهما في الإذاعة ... ودراسة أصوات الكلام المفيد الدال على معنى إذا اقتصرت على ملاحظة المخارج والصفات وتسجيلها فحسب فهي مقدمة لدراسة اللغة ، ولكنها ليست من صلب دراسة اللغة ، أو بعبارة أخرى هي دراسة للكلام وليست دراسة للغة " [٢]، وكأنه هنا يريد أن يصل إلى ما توصل إليه دي سوسير من أن دراسة الكلام ينبغي أن تكون مستقلة عن دراسة اللغة ، وحدد لها اسمًا مستقلًا وهو علم لغة الكلام .

---

(١) اللغة العربية معناها ومبناها د / تمام حسان ص ٣٢ .

(٢) السابق ص ٣٢ .

المبحث الثالث

اللغة والكلام عند اللغويين الغربيين

ذهب فريق من اللغويين الغربيين إلى أن اللغة والكلام شيئان متمايزان ، وإن اشتركا في كثير من الخصائص والسمات ، فهما يشتركان في الاعتماد على الأصوات أو الرموز الصوتية التي تكون الجمل والعبارات سواء أكانت تلك المكونات على هيئة مخزون في الذهن أم على هيئة المنطوقات أو الملفوظات ، لكن يختلفان في أن اللغة تمثل تلك الأنظمة التي تربط بينها علاقات وهى شيء مجرد في ذهن الجماعة اللغوية ، أما الكلام فهو الأداء المحسوس والملموس لتلك الأنظمة والتي يرتضيها المجتمع ، فلا جدال في أن اللغة والكلام بينهما ارتباط وثيق ، فاللغة من غير كلام ميتة ، والكلام من غير لغة لا معنى له ، ولكن هذا لا يمنع من أن تكون اللغة هي الجانب الذي يمكن أن يخضع للدراسة العلمية لأنها تتكون من نظام مطرد وعلاقات متسقة تصلح لأن تكون مجالًا للدراسة العلمية ، أما الكلام فهو غير محصور وغير متناهٍ بل ومتنافر وبذلك لا يمكن أن يدخل تحت القواعد والقوانين التي تنتج عن الأسلوب العلمي ، " وترجع علة إمكان دراسة اللغة دراسة علمية ، وعدم تحقق ذلك إلا حين تُدْرَس مستقلة عن مظاهرها أو تحققاتها الفردية ، إلى أن الكلام يتحقق في صور لا حصر لها ، وليس ثمة علم يمكن أن يدرس هذه الصور في الواقع ، فالمفردات والعبارات والجمل (في أي لغة) لا حصر لها ، ولا سبيل إلى دراستها كلها ، أما الطرق التي تبنى بها المفردات أو العبارات أو الجمل فتقع تحت الحصر ، ويمكن دراستها " [١] ، وفيما يلي مزيد من التوضيح والبيان :

---

(١) دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة ، تأليف د / سعيد حسن بحيري ص ١٩.

اللغة والكلام عند دي سوسير :

ذهب فريق من اللغويين الغربيين ـ وعلى رأسهم دي سوسير ـ إلى القول بوجود فرق بين اللغة والكلام ، فاللغة تمثل مجموعة من العلامات تربط بينها مجموعة من العلاقات التي تشكل نظامًا أو بنية يشترك فيها كلُّ أعضاء الجماعة اللغوية، وتحفظ في المخزون الذهنيِّ لهم ، أما الكلام فهو اللغة على ألسنة المتكلمين وفي مجال الاستعمال، يقول دي سوسير : " فاللغة والكلام إذن يعتمد أحدهما على الآخر ، مع أن اللغة هي أداة الكلام وحصيلته ، ولكن اعتماد أحدهما على الآخر لا يمنع من كونهما شيئين متميزين تماماً، فاللغة موجودة على هيئة ذخيرة من الانطباعات مخزونة في دماغ كل فرد من أفراد مجتمع معين ، ويكاد ذلك يشبه المعجم الذي توزع منه نسخ على كل فرد في المجتمع ، فاللغة لها وجود في كل فرد ، ومع ذلك فهي موجودة عند المجموع ، وهى لا تتأثر برغبة الأفراد الذين تخزن عندهم ، ويمكن التعبير عن أسلوب وجودها بالصيغة الحسابية الآتية :

١+ ١ + ١ + ...= (النمط الجماعي)

ما الدور الذي يقوم به الكلام في المجتمع المار ذكره آنفاً ؟ الكلام مجموع ما يقوله الناس ويضم (أ) الفعاليات الفردية التي تعتمد على رغبة المتكلم (ب) الأفعال الصوتية التي تعتمد . أيضاً . على إرادة المتكلم ، وهذه الأفعال لابد منها لتحقيق الفعاليات المذكورة في (أ) الكلام ، إذن ليس وسيلة جماعية ، بل مظاهر فردية قصيرة الزمن ، فلا نحصل في الكلام إلا على مجموعة الأفعال المعينة كما في الصيغة الآتية (١+ ١+ ١+ ١ ...) .

كل هذه الأسباب تحملنا على القول أن النظر إلى اللغة والكلام من وجهة نظر واحدة

أمر بعيد عن الحقيقة " [١] ، وقد فرق دي سوسير بين اللغة والكلام بالفروق الآتية :

١ ــ اللغة يمكن دراستها بصورة مستقلة عن الكلام ، وتكون على هيئة أنظمة حاكمة ترتضيها الجماعة اللغوية وتظهر للوجود على هيئة ألفاظ وكلمات وجمل ، وكأن اللغة هي (الكتالوج) الذي بمقتضاه يتم العمل والتنفيذ والتطبيق ، " فاللغات البائدة (الميتة) مع أنها لم تعد تستخدم في الكلام ، نستطيع بسهولة أن نتعلم أنظمتها اللغوية " [٢] ، أما الكلام فلا يمكن دراسته بصفة مستقلة ؛ لأنه أمر فردي يعتمد على رغبة المتكلم وعلى إرادة المتكلم ولكل متكلم طريقته في النطق وله معان يقصدها ، ويصعب وضع نظام لكل هذه الأداءات الفردية ، يقول دي سوسير : " وعلى العموم لا تمكن دراسة الكلام ؛ لأنه غير متجانس " [٣] .

٢ ــ اللغة موجودة في أذهان الأفراد " فاللغة موجودة على هيئة ذخيرة من الانطباعات مخزونة في دماغ كل فرد من أفراد مجتمع معين ، ويكاد ذلك يشبه المعجم الذي توزع منه نسخ على كل فرد في المجتمع ، فاللغة لها وجود في كل فرد ، ومع ذلك فهى موجودة عند المجموع ، وهى لا تتأثر برغبة الأفراد الذين تخزن عندهم "[٤]، فاللغة عنده شيء مجرد غير محسوس ، يتشكل من الذخيرة اللغوية

---

(١) علم اللغة العام تأليف فرديناند دي سوسور ترجمة الدكتور / يوئيل يوسف عزيز مراجعة النص العربي د. مالك يوسف المطلبي ص ٣٨ .

(٢) السابق ص ٣٣ .

(٣) السابق ص ٣٨ ، وهذه النظرة قريبة من النظر إلى الفصحى والعامية في اللغة العربية ، فالفصحى هي تلك اللغة التي تخضع أو تتفق مع قوانين وقواعد اللغة العربية ، أما العامية فهي استعمالات فردية وتحريفات شخصية غير ثابتة وغير محصورة .

(٤) علم اللغة العام ص ٣٨ .

الموجودة في عقول أبناء تلك اللغة ، فهي لا توجد عند فرد بعينه [١] ، وإنما توجد في مجموع عقول أبنائها ، وهو ما يسمى الشعور الجمعي أو الوعي الجمعي ، أو العقل الجمعي ، وقد شبهها دي سوسير بالقاموس الذي يوزع على أبناء تلك اللغة ويأخذ منه كل فرد بحسب حاجاته عند النطق أو الكلام ، ولا تكتمل عناصرها إلا في مجموع عقول الأفراد الذين ينتمون إليها .

أما الكلام فهو الصورة المحسوسة لتلك اللغة ، فهو شيء فردي ومادي في وجهة نظر دي سوسير ، يقول د / سعيد بحيري : " اللغة ـ على كل حال ـ عند دي سوسير وحدة كلية من دراسة الصور المخزونة في ذاكرة مستخدمي هذه اللغة ، هي مستودع يضم صور العلاقات المخزونة في عقول هؤلاء الأفراد ، ولا شك أن ملامحها (أي : ملامح اللغة) وخصائصها موجودة بالفعل في أذهان المتحدثين بها ، أما الكلام فهو الأداء الفعلي الملموس للغة من قبل الفرد ، وهذا الأداء نفسي واجتماعي معًا ، ويحدث نتيجة لتأثير السامع بموقف معين ، الكلام ــ إذن ــ هو الصور الملموسة للغة " [٢] .

٣ ــ اللغة ثابتة نسبيًا والكلام متغير، أو بمعنى آخر اللغة ساكنة ، والكلام متحرك ، وهذا يعنى أن اللغة تتغير ببطء والكلام يتغير بسرعة ، يقول د / سعيد بحيري : " إن دي سوسير حين فرق بين اللغة والكلام ، كان يرى الفصل بين الخصائص العامة التي تشكل الوحدة والنظام والخصائص الفردية التي تشكل التفرد والتميز ، وبعبارة موجزة بين الثابت والمتغير " [٣] .

---

(١) باستثناء الأنبياء ، ويؤيد ذلك قول بعض الفقهاء : كلام العرب لا يحيط به إلا نبي .
ينظر : المزهر ١ / ٦٤ .

(٢) علم لغة النص ص ٢٢ .

(٣) السابق ص ٣٥ .

لكن هذا التغير يبدأ فرديًا ثم ينتهى اجتماعيًا ، وفي هذه الحالة يدخل التغير نظام اللغة ويصبح اجتماعيًا ، يقول د / سعيد بحيري : " ألم تكن نظرة دي سوسير إلى التغير اللغوي بأنه فردي ، أي أنه حدث فردي يبدأ من الفرد ثم يصبح ظاهرة اجتماعية ؟ بمعنى أن ينتقل من خصوصية الفرد إلى الاتفاق الجمعي ، من التجزيء إلى النظام ، ومن ثم انتهى إلى أنها تدخل نظام اللغة ، وتصبح قاعدة من قواعدها ... وهذا يعني أن كل التغيرات اللغوية تحدث بإدراك مجموعة من الأفراد لمثل هذه التغيرات، وتصبح حينئذ من مجموع النظام اللغوي ، باختصار ، يبدأ التغيير فرديًا ، ويكون حينئذ في مجال الكلام ، ثم يصبح جماعيًا فيدخل مجال اللغة " (١) .

٤ــ اللغة صيغة أو شكل وليست مادة وهو ما عبر عنه دي سوسير بقوله : " a langue is form non substance " ، ومصطلح الشكل عند دي سوسير مرتبط بمصطلح الشكل الداخلي للغة عند فلهلم فون هومبلدت (Wilhelm von Humboldt : ١٧٦٧ــ ١٨٣٥ م) إلا أن هذا الشكل ليس ساكنًا ، بل هو قوة وطاقة ومقدرة تجعل الإنسان قادرًا على إنشاء الكلمات والجمل والعبارات التي تناسب الموقف والمقام الذي تذكر فيه ، " فقد كان ــ هومبلدت ــ يؤمن بأن اللغة ليست شكلًا ساكنًا ، بل هي قوة أو طاقة مؤثرة ، حيث إنها تضع محتوى الأفكار الممكنة في كلمات وتركيبات " (٢) .

أما الكلام فهو مادة فيزيائية ووسيلة لتحقق اللغة وظهور الأفكار في أرض الواقع .

٥ ــ اللغة اجتماعية والكلام فردي ، فاللغة ـ عند دي سوسير ـ نظام اجتماعي مطرد يتكون في العقل الجمعي وفي أذهان الأفراد مجتمعين ، ولا يمكن للفرد وحده أن ينشيء اللغة أو أن يقوم بتغييرها ، فلا يمكن أن يتكون نظام لغوي إلا بالتوافق

---

(١) السابق ص ٣٥ .

(٢) علم لغة النص ص ٣٥ .

والاشتراك بين أبناء المجتمع الذي يتكلم تلك اللغة ، وعلى الإنسان أن يكتسب هذا النظام بالتعلم حتى يتوافق مع الأفراد المحيطين به والذين يستخدمون رموز تلك اللغة ، يقول دي سوسير:" اللغة شيء محدد تحديدًا واضحًا ، ضمن الكتلة غير المتجانسة لعناصر اللسان ، ويمكن تحديد موقعها في الجزء المحدد لدائرة الكلام في المكان الذي ترتبط فيه الصورة السمعية بالفكرة ، فهى الجانب الاجتماعي للسان ، تقع خارج الفرد الذي لا يستطيع ـ أبدًا ـ أن يخلقها أو أن يحورها بمفرده ، فلا وجود للغة إلا بنوع من الاتفاق يتوصل إليه أعضاء مجتمع معين ، وعلى الفرد أن يقضي فترة معينة يتعلم فيها وظيفة اللغة " [١] ، فاللغة ـ عند دي سوسير ـ لا يمتلكها شخص واحد ولا فرد بعينه وإنما هي قاسم مشترك بين مجموعة أفراد توافقوا وتواضعوا وتراضوا على أن تكون وسيلة التواصل فيما بينهم ، فاللغة ملك لجميع أبنائها ، أما الكلام فهو الاستعمال الفردي لهذه المنظومة ، وأكد هذا المعنى عندما قال : " إن الفصل بين اللغة والكلام يعني ـ أيضًا ـ الفصل بين ما هو اجتماعي وما هو فردي " [٢] ، وقد أوضح د / تمام حسان هذا الكلام بقوله: " واللغة المعينة توجد في المجتمع الناطق (masse parlante)، وأما الكلام فهو وظيفة الفرد المتكلم (sujet parlant) ، واللغة جهاز من الحروف والكلمات والصيغ والعلاقات النحوية في مجتمع ما ، ويتعلمها الفرد اكتسابًا فيدخل بذلك في زمالة اجتماعية ، وأما الكلام فهو التنفيذ الفردي والاستخدام الشخصي لهذا الجهاز ، وهى حقيقة اجتماعية ، وهو عمل فردي يشمل ما ينطقه أو ما يكتبه الفرد " [٣] ، والكلام لا يمكن أن يكون اجتماعيًا ، بل هو عمل فردي ينطقه المتكلم ، ويعبر به عن حاجاته ومتطلباته "

---

(١) علم اللغة العام ص ٣٣ .

(٢) علم اللغة العام ص ٣٢ .

(٣) مناهج البحث في اللغة د / تمام حسان ص ٣٥ .

والكلام ـ على اعتبار أنه ما يلفظه المتكلم ـ لا يمكن أن يكون ظاهرة اجتماعية ؛ لأنه نتاج فردي شعوري تمامًا ، بينما الظاهرة الاجتماعية ينبغي أن تكون عامة في مجتمع يمارس إلزامًا على أفراده، ومن ثم فليست الظاهرة الاجتماعية عملًا فرديًا حرًا " (١) .

ولم يتفق اللغوي الدانماركي أوتو يسبرسن Otto Jesperson (١٨٦٠ ــ ١٩٤٣ م) مع دي سوسير في كون الكلام عملًا فرديًا ، " ويرى يسبرسن على عكس دي سوسور أن أكثر الكلام فردية لا بد أن يكون مشروطًا من الناحية الاجتماعية ، وفي كل نطق كلامي عنصر اجتماعي إلا في حالة الطفل الذي يناغي نفسه في المهد ، أو في حالة الوحيد الذي يسلي نفسه بالغناء ، أو الكلام المحرف ، وإلا فكل متكلم لا بد أن يطابق في كلامه مقياسًا اجتماعيًا فيتكلم كما يتكلم الآخرون ، والسبب الوحيد الذي يدفعنا إلى الكلام هو الرغبة في التأثير في الآخرين ، فلا بد لنا لهذا السبب أن نراعى ميولهم وما يرضيهم " (٢) ، والدراسة اللغوية ــ في رأي يسبرسن ــ ينبغي أن تعنى بالكلام الفردي لأنه هو الذي يمثل اللغة بمظهريها المادي والذهني ، أما لغة الجماعة فهى أمر اعتباري مجرد .

٦ ــ إن علم اللغة يعنى بدراسة اللغة ولا يعنى بدراسة الكلام ، يقول دي سوسير :" وعلى العموم لا تمكن دراسة الكلام ؛ لأنه غير متجانس ... سيكون موضوع اهتمامي علم اللغة فقط (دون علم لغة الكلام) ، وإذا استخدمت مادة تدخل في موضوع الكلام من أجل توضيح مسألة ما ، فسأحاول أن أبقي على الخطوط التي تميز بين هذين الفرعين " (٣) .

---

(١) دي سوسير رائد علم اللغة ص ٢١ .

(٢) مناهج البحث في اللغة ص ٤٣ .

(٣) علم اللغة العام ص ٣٨ .

وقد خالف فرانز بواز Franz Boas (١٨٥٨ ـ ١٩٤٢ م) رأى دي سوسير حيث إنه يرى أن الكلام هو الذي ينبغى أن يكون مجال الدراسة وموضع اهتمام اللغوي وهو" يرى أن بحث اللغة ينبغي أن يتجه إلى الكلام لا إلى اللغة ، مخالفًا بذلك دي سوسير شكليًا وليس جوهريًا ؛ لأن الكلام الفرد هو الشيء الذي يمكن رصده وبحثه من هذه السبيل " (١) .

٧ ــ الكلام يأتي أولًا ثم تأتي اللغة آخرًا ، يقول دي سوسير : " والكلام يأتي أولًا من الناحية التاريخية ؛ إذ كيف يمكن للمتكلم أن يربط فكرة ما بصورة للكلمة ، إذا لم يكن قد وجد مثل هذا الربط في أحد أفعال الكلام ؟ كما أننا نتعلم لغتنا بالإصغاء إلى غيرنا ، فاللغة لا تستقر في الدماغ إلا بعد عدد لا يحصى من الخبرات " (٢) .

وهذه النظرة تختلف عن نظرة لويس تروله هيلمسليف (Louis Trolle Hjelmslev) (١٨٩٩ ـ ١٩٦٥ م) الذي يرى أن اللغة تأتي أولًا لأنها مجموعة الأنظمة التي يبنى عليها الكلام ، ثم يأتي الكلام آخرًا ، لكنه استبدل بمصطلحي اللغة والكلام مصطلحين آخرين وهما النظام والنص ، " وتتضح العلاقة عنده بين النظام والنص من قوله : إن اللغة توجد قبل أن تتحقق في النص ، كما أن وجود أي نص يفترض بالضرورة وجود نظام لغوي " (٣) .

٨ ــ اللغة ذات طبيعة متجانسة ونظام مترابط ، أما الكلام فهو متناثر ومتنافر ولا يمكن أن يخضع للدراسة العلمية ، يقول دي سوسير : " أما اللغة ــ حسب تعريفنا لها ــ فمتجانسة ، فهي نظام من الإشارات جوهره الوحيد الربط بين المعاني والصور

---

(١) علم لغة النص ص ٣٥ .
(٢) السابق ص ٣٨ .
(٣) السابق ص ٤٠ .

الصوتية ، وكلا طرفي الإشارة سايكولوجي " [١] ، والكلام غير متجانس ، يقول دي سوسير : " وعلى العموم لا تمكن دراسة الكلام ؛ لأنه غير متجانس " [٢] .

ومعنى ذلك أن اللغة هي نظام له قوانين محددة ، وقواعد كلية يمكن أن تخضع للبحث والدراسة ، وينتج عنها نتائج محددة ـ أيضًا ـ تصاغ بأسلوب علمي دقيق يصلح للاعتماد عليه في التحليل والدراسة .

أما الكلام فمن سماته الفردية ، والارتجال والتنافر وعدم التجانس ، وفي هذه الحالة لا يخضع للبحث والدراسة لأنه غير محدود " لأن الصور الفردية أبعد ما تكون عن الوحدة والتجانس ، فلا تصلح للدراسة ، ولكي ندرس شيئًا ما دراسة علمية ينبغي أن يكون لدينا موضوع محدود حتى نستطيع إجراء إحصاء بأجزائه ، وإجراء تحليل له ، وصور الكلام الفردية ـ أو النشاط الكلامي الذي يقوم به الأفراد ـ غير محدودة ، ولا يمكن والأمر كذلك وصفها إلا إذا كان هذا الوصف ـ أيضًا ـ بلا حدود ، وهذا ما لا سبيل إليه " [٣] .

٩ ـ اللغة ملكة لا يفقدها الإنسان إلا إذا فقد الفهم أو العقل ، أما الكلام فيمكن أن يفقده الإنسان بسبب طارئ على أعضاء النطق ، يقول دي سوسير : " واللغة شئ متميز جدًا فإذا فقد المرء استخدام الكلام فإنه يبقى محتفظًا بها إذا كان يستطيع فهم الإشارات الصوتية التي يسمعها " [٤] .

١٠ ـ اللغة أساس في حياة الأفراد والجماعات ، ولا يمكن الاستغناء عنها أو الحياة من دونها ، أما الكلام فهو أمر ثانوي حيث إن الأبكم الذي لا ينطق ولا يتكلم يمكن

---

(١) السابق ص ٣٣ .

(٢) السابق ص ٣٨ .

(٣) دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة ، تأليف د / سعيد حسن بحيري ص ٢٧.

(٤) السابق ص ٣٣ ، ومدخل إلى علم اللغة ص ٦١ .

أن يمارس حياته بطريقة عادية ولا يتسبب ذلك في قطع التواصل بينه وبين الآخرين ، يقول دي سوسير : " إن الفصل بين اللغة والكلام يعني الفصل بين ما هو جوهري وما هو ثانوي وعرضي إلى درجة ما " (١) .

ودي سوسير نفسه اعترف بصعوبة الفصل بين اللغة والكلام ، وأن الضرورة قد تقتضي إطلاق علم اللغة على دراسة الكلام فقال : " ويستطيع المرء إذا اقتضت الضرورة أن يطلق لفظة علم اللغة على كل من الفرعين المذكورين ـ اللغة والكلام ـ أعلاه فنقول علم لغة الكلام ، ولكن ينبغي أن نفصل بين علم لغة الكلام ، وعلم اللغة الحقيقي الذي يهدف إلى دراسة اللغة ، سيكون موضوع اهتمامي ـ والكلام لدي سوسير ـ علم اللغة فقط (دون علم لغة الكلام) وإذا استخدمت مادة تدخل في موضوع الكلام من أجل توضيح مسألة ما ، فسأحاول أن أبقي على الخطوط التي تميز هذه الفرعين " (٢) .

دي سوسير وعلماء الاجتماع :

التفريق الذي ذكره دي سوسير بين اللغة والكلام إنما هو تفريق بين ما هو اجتماعي وهو اللغة وما هو فردي وهو الكلام ، وهذا التفريق تأثر فيه دي سوسير بعلماء الاجتماع الذين فرقوا بين الظاهرة والخصائص والسمات المتعلقة بالفرد وبين الخصائص والسمات المتعلقة بالجماعة ، ومن أبرز علماء الاجتماع الذين وضعوا هذا الأساس هو أبو علم الاجتماع الحديث وهو إميل دور كايم (٣) Emile

(١) علم اللغة العام ص ٣٨ ، بتصرف يسير .

(٢) السابق ص ٢٧ .

(٣) يعد دور كايم نقطة تحول مهمة في تاريخ علم الاجتماع ، وجعل محور اهتمامه هو تحديد موضوع علم الاجتماع وتمييزه عن علم النفس ، وتحريره من الفلسفة الاجتماعية ، وحاول ←←←

Durkheim (١٨٥٨ ــ ١٩١٧ م) ، الذي يرى أن الظواهر الاجتماعية كالعقائد والعادات والتقاليد والأخلاق ... إلخ ، هي تراث إنساني يفرض نفسه على الأجيال المتعاقبة بدلًا من أن يقال : إن الأفراد هم الذين يخلقونه بدءًا في كل عصر ، وهذا يكشف لنا عن حقيقة مهمة ، وهى أن الظواهر الاجتماعية مستقلة عن الصور الفردية التي تتشكل بها عند انتشارها في أحد المجتمعات" [١] .

وقد حدد علماء الاجتماع ثلاثة خصائص للظاهرة الاجتماعية التي تدخل في مجال هذا العلم ، تلك الخصائص يمكن بيانها فيما يلي :

أولًا : أنها مجموعة من القواعد العامة التي يشترك فيها أفراد المجتمع ، يقول دور كايم عن الظاهرة الاجتماعية بأنها : " ضروب من السلوك والشعور التي تمتاز بخاصة يمكن ملاحظتها بسهولة ، وهى أنها توجد خارج شعور الأفراد "[٢] .

ثانياً : أنها ليست من صنع فرد معين ، وإنما هى نتيجة الاجتماع ، " أي : أن لها وجودًا خاصًا خارج شعور الأفراد ؛ لأنها ليست من صنعه بل هو يتلقاها من المجتمع الذي نشأ فيه ، وليس يمكن أن يقال : إنها وليدة التفكير الذاتي ، بل الأولى أن القول بأنها هى التي تلون هذا التفكير لدى مختلف الأفراد بطابع متجانس إلى حد كبير أو قليل حسب درجة التقدم التي وصل إليها المجتمع " [٣] .

→→→

جاهدًا أن يحتفظ لعلم الاجتماع بكيانه الخاص كعلم وضعي يعتبر ضروريًا وكافيًا لتفسير الواقع تفسيرًا شاملًا .

ينظر : كتب غيرت الفكر الإنساني تأليف / أحمد محمد الشنواني ص ١٨٩ .

(١) كتب غيرت الفكر الإنساني ص ١٩٣ .

(٢) قواعد المنهج ص ٥١ .

(٣) شنواني ص ١٩٢ .

ثالثًا : أنها قهرية والخروج عليها يؤدي إلى العقاب المادي أو المعنوي ، يقول دور كايم : " إنها تمتاز ـ أيضًا ـ بقوة آمرة قاهرة هى السبب في أنها تستطيع أن تفرض نفسها على الفرد أراد ذلك أو لم يرد ، حقًا إنني لا أشعر به حين أستسلم له بمحض اختياري ، وذلك لأن الشعور بالقهر في مثل هذه الحال ليس مجديًا ، ولكن ذلك لا يحول دون أن يكون القهر خاصة تتميز بها الظواهر الاجتماعية ، ويدل على ذلك أن هذا القهر يؤكد وجوده بقوة متى حاولت مقابلته بالمقاومة ، فإذا حاولت خرق القواعد القانونية فإنها تتصدى لمقاومتي بصور مختلفة " (١) .

وقد رأى دي سوسير أن اللغة تتوافر فيها تلك الخصائص ، حيث إنها تتكون من نظام عام يشترك فيه كل أفراد المجتمع ، ويستخدمونه للتفاهم فيما بينهم ، كما أنها قهرية وتفرض نفسها على الأفراد (٢) ، كل فرد يجد نفسه مضطرًا للتعامل بها ، وحتى يتوافر فيها الشرط الثالث أو الخصيصة الثالثة فلا بد وأن تكون اجتماعية أو نتاج العقل الجمعي وتتكون من مجموعة من النظم التي يقوم العرف الاجتماعي بإيجادها ويساعد على استمرارها ، وهذا يتفق مع اللغة ولا يتفق مع الكلام ؛ لأن الكلام ــ في رأيه ــ عمل فردي في الأساس ، وإن كان له جانب اجتماعي حيث يشترك فيه كل أفراد المجتمع إلا أنه متنافر وغير متجانس ولذا لا يخضع للتحليل العلمي .

وقد أسس دي سوسير نظريته اللغوية بصفة عامة وتفريقه بصفة خاصة بين اللغة والكلام على نظرية دور كايم الاجتماعية التي فرق فيها بين الفردي والجماعي،

---

(١) قواعد المنهج تأليف / دور كايم ص ٥٢ .

(٢) رفض شوخارت (Hug Schuchardt ١٨٤٢ـ ١٩٢٨ م) فكرة جبرية الظواهر اللغوية ، وعول على دور الفرد في حدوث التغييرات اللغوية .
ينظر : في علم اللغة العام د / عبد العزيز أحمد علام ص ٢٨٦ .

يقول د / محمود السعران : " ودور كيم يعتبر ما يسميه " نشاط الجماعة " أو " النشاط الجماعي " مستقلًا عن أي فرد من الأفراد الذين ينتمون إلى المجتمع ، إن للفرد عند دور كايم وجودًا خاصًا به ، ودور كايم يقرر أن الظواهر الاجتماعية ذات وجود خاص بها ، واللغة ظاهرة من جملة الظواهر الاجتماعية " (١) .

وقد عقدت الباحثة (بريجيته بارتشت) مقارنة بين مبادئ دور كايم في علم الاجتماع ومبادئ دي سوسير في علم اللغة ، فقد فرق دور كايم بين ما هو فردي وما هو اجتماعي ، كما فرق دي سوسير بين الكلام الفردي واللغة التي هى نتاج اجتماعي ، وأشارت إلى أوجه التشابه بين عبارات دور كايم وعبارات دي سوسير التي وصلت إلى درجة التطابق الحرفي :

	دور كايم	دي سوسير
١ـ	تسكن الحقائق الاجتماعية في المجتمع ذاته ، وليس في أجزائه ، أعضاء المجتمع ، ولا يتضح الناتج الاجتماعي كاملًا لدى أي فرد مفرد .	اللغة المعينة لا توجد كاملة إلا في الجماعة .
٢ـ	الحقائق الاجتماعية ملزمة للفرد .	اللغة المعينة نتاج لا يتملكه الفرد إلا بصورة سلبية ، وهى ملزمة للفرد الذي لا يستطيع أن يوجدها ولا أن يغيرها من نفسه .
٣ـ	يجب أن يبحث التفكير الجمعي	يجب أن تبحث اللغة المعينة في ذاتها

(١) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ٣٠١ .

	في ذاته ومن أجل ذاته .	ومن أجل ذاتها .

ويتضح هذا التأثر في النقاط الآتية :

أولًا : محاكاة النظير :

محاكاة النظير في علم الاجتماع معناها أن يراقب الإنسان سلوك الآخرين ويقوم بتقليد ذلك السلوك ، وكذلك الأمر بالنسبة للكلام حيث يقوم الإنسان بسماع الألفاظ والكلمات من الآخرين ثم يعيد تكرارها فتنتقل من الفردية إلى الجماعية ، يقول يسبرسن (ت ١٩٤٣م): " فإن ما ذكره ــ يعني : دي سوسير ــ من (محاكاة النظير) وتأثيرها على الصيغ ، وكيف أنها تبدأ أمرًا فرديًا ثم تنتقل بعد ذلك إلى مرتبة الأحداث الجماعية ؟

أقول ــ والكلام ليسبرسن ــ إنه في كل ذلك لم يأت بجديد ، فمن المتعارف عليه بين دارسي العلوم الاجتماعية أن جميع الأحداث الاجتماعية تبدأ فردية ، ثم لا تلبث أن تشيع بين عدد من الأفراد ثم يتسع نطاقها فتتخذ صفة الجمعية ، وهكذا نرى أن دي سوسير قد أسبغ على ما قاله صفة الابتكار وهو في حقيقة الأمر يعيد تقرير أمر متعارف عليه ، أو بتعبير أدق يستعمل في علم اللغة بعض النظريات المقررة في علم الاجتماع " (١) .

ثانياً : الفردي والجماعي :

يتضح جانب تأثر دي سوسير بعلم الاجتماع عندما يفرق بين الفردي والجماعي ، فمن المبادئ المقررة في علم الاجتماع أنه يدرس الظواهر الجماعية ولا يتناول الظواهر الفردية فإن " الظواهر الاجتماعية مستقلة استقلالًا تامًا عن الصور الفردية

---

(١) اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٢١ .

التي تتشكل بها لدى انتشارها في أحد المجتمعات " [١] .

لكن لم يتفق يسبرسن مع دي سوسير في كون الكلام صورة فردية واللغة ظاهرة اجتماعية ، حيث إن الكلام وإن بدأ فرديًا إلا أنه لا بد أن مع باقي الصور الفردية ومن مجموع هذه الصور الفردية تتحقق الجماعية فجماعية اللغة هى مكونة من مجموعة أفراد ، يقول يسبرسن : " وأما قوله بأن الكلام من نتاج الأفراد بينما أن اللغة من نتاج المجتمع فقول مردود ، حيث إن الجماعة ليست سوى مجموعة من الأفراد ، ولا يمكن بحال أن نعتبرها شيئًا آخر ، ودي سوسير هنا لم يأت بجديد ـ أيضًا ـ فهو هنا كذلك ناقل عن بعض علماء الاجتماع الألمان الذين قالوا بوجود الجماعة وجودًا يختلف عن وجود الأفراد وبأنه إذا صح أن يقال إن للفرد عقلًا فرديًا فإن للجماعة كذلك عقلًا جمعيًا " [٢] .

حتى أولئك الذين أقروا بوجود الفردية في الكلام والجماعية في اللغة رأوا أن دي سوسير قد بالغ في اعتبار الكلام عملًا فرديًا محضًا ، وأن اللغة جماعية محضة ، وقد " ميز ـ أي : دي سوسير ـ بين القدرة اللغوية للمتكلم وبين الظواهر الواقعية أو مادة علم اللغة (المنطوقات) بوصفهما langue وال parole (سار هذان المصطلحان السوسيريان دون ترجمة في التداول الدولي مثل مصطلحات أخرى كثيرة جدًا) وبينما يشكل البارول [والكلام] المادة التي يمكن الحصول عليها مباشرة ، فإن الهدف الصحيح للغوي هو (لانج) [لغة] كل جماعة لغوية ، أي : المعجم والقواعد والفنلجيا المغروسة في كل فرد بسبب نشأته في المجتمع المعين وتنشئته على الأسس التي وفقًا لها يتكلم لغة هذا المجتمع ويفهمها ، وربما يكون دي سوسير قد بالغ ـ متأثرًا كثيرًا بالنظرية الاجتماعية لإميل دور كايم ـ في تقديره للواقع

---

(١) قواعد المنهج ص ٦٣، وكتب غيرت الفكر الإنساني ص ١٩٣ .

(٢) اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٢١ .

فوق الشخصي للغة langaue إضافة للواقع الفردي ، وبشكل أخص عندما يعترف بأن التغيرات في اللغة تحدث بسبب التغيرات التي يحدثها الأفراد في كلامهم parole، بينما يصرح مع ذلك بأن اللغة لا تخضع لقدرة الفرد على التغيير " (١).

ثالثاً : العقل الفردي والعقل الجماعي :

وعلى الرغم من أن دي سوسير كان يريد أن يستقل علم اللغة عن العلوم الأخرى ، ويكون له منهجه المستقل بين العلوم إلا أنه في قوله بالتفريق بين اللغة والكلام كان متأثرًا بعلماء الاجتماع الذين فرقوا بين العقل الجماعي والعقل الفردي ، يقول د / كمال بشر : " والحق أن دي سوسير في قوله بالتفريق بين اللغة والكلام متأثر ببعض علماء الاجتماع في التفريق بين ما سموه " العقل أو الشعور الجماعي " و " العقل أو الشعور الفردي " ، وهذه فكرة قد تولى الرد عليها كثير من العلماء ، ومن ذلك ـ مثلًا ـ ما قرره يسبرسن من أنه لم صح أن كل أفراد المجموعة الاجتماعية الواحدة أو معظمهم فكروا بطريقة واحدة وسلكوا في الحياة مسلكًا موحدًا ما جاز لنا أن نقول بوجود عقل جماعي وإنما يمكن أن نقول إن هناك عقولًا متعددة يشبه بعضها بعضًا ، ومن ثم فكرت بطريقة واحدة وسلكت في الحياة مسلكًا متشابهًا " (٢).

ففكرة العقل الجماعي التي استند عليها دي سوسير لاقت اعتراضًا من أكثر من جهة فمن جهة جعلت علم اللغة تابعًا لعلم الاجتماع ، ومن جهة أخرى أنها لم تكن موضع إجماع وقبول من علماء الاجتماع أنفسهم ، يقول د / سعيد بحيري : " إن دي سوسير قد أكد الطابع الاجتماعي في النظام اللغوي ، ولذا كانت الأفكار التي استقاها من علم الاجتماع لتعينه على تفسير مسائل لغوية قد أدت على عدم إمكان تحقيق طموحه في استقلالية الدرس اللغوي من جهة ، ومعارضة العلماء الذين

---

(١) موجز تاريخ علم اللغة في الغرب ، ص ٣٢٠ .

(٢) دور الكلمة في اللغة ص ٤١ .

اعتمدوا في تحليلاتهم على مباديء أخرى من علوم مختلفة ، وكان منهم من ارتكن إلى أسس رياضية وفلسفية ومنطقية ومعرفية في آن واحد ، وهو ما يؤكد ذلك التداخل المعرفي بين علم اللغة والعلوم الأخرى وامتناع ـ بوصفها مقولة بدهية لا مبالغة فيها ـ استحالة الفصل بينه وبينها " [١] .

والذي أراه أن دي سوسير لم يكن تابعًا لدور كايم ، ولم يجعل علم اللغة تابعًا لعلم الاجتماع ، وإنما هو اتبع خطوات دور كايم التي جعلت علم الاجتماع مستقلًا عن سائر العلوم ، فكذلك دي سوسير أراد أن يستقل علم اللغة عن بقية العلوم وقد اتبع في ذلك الخطوات التي اتبعها دور كايم بجامع اشتراك العلمين في الاعتماد على الظاهرة الاجتماعية .

وقد أحدث تفريق دي سوسير جدلًا كبيرًا في الأوساط العلمية بين مؤيد ومعارض وكلاهما بين معتدل ومغالٍ ، ويمكن بيان ذلك فيما يلي :

أ ـــ المؤيدون لدي سوسير :

اتبع شارل باللي (١٨٦٥ ـ ١٩٤٧م) طريقة أستاذه دي سوسير في التفريق بين اللغة والكلام ، فهو يرى أن اللغة المعينة هى طاقات وإمكانيات للتعبير عن المقصود ، والكلام هو العمل الفردي الذي يعبر عن الإحساس والرغبات وعن طريق الكلام يتم إدخال بعض المفردات والأساليب إلى دائرة اللغة ، و" يرى أن دي سوسير قد غالى في اعتبار اللغة أمرًا ذهنيًا ناتجًا عن العقل الجمعي ، بينما يميل هو إلى تغليب الجانب العاطفي، فمن رأيه (أعني: باللي) أن هناك كفاحًا مستمرًا بين الكلام ـ الذي هو أمر فردي ـ وبين اللغة ، وإذا صح أن اللغة أداة للتفاهم الجمعي فإن الكلام نشاط لغوي فردي يعالج الحياة الواقعية للفرد ، ومن ثم فالكلام وحده وهو الذي

---

(١) دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة ، د / سعيد حسن بحيري ص ٢٦ ، ٢٧

يعبر عن الواقعية والعاطفية، بعكس اللغة التي ليست سوى إمكانيات تعبيرية" (١).

فشارل باللي هنا يؤكد على اللغة العاطفية (language affectif) ، والمقصود باللغة العاطفية أي : الإحساس والرغبة وهما الدافعان إلى التفكير من ناحية وإلى إنتاج الكلام من ناحية أخرى ، ومن ذلك يتبين أن اللغة ليست أمرًا ذهنيًا محضًا ، وكذلك الكلام ليس أمرًا ماديًا محضًا ، يقول د / تمام حسان : " ويرى شارل باللي أحد تلاميذ دي سوسور أن أستاذه قد بالغ في إعطاء اللغة كل هذه الصبغة الذهنية بجعلها نتيجة الحكمة الجمعية ، ويضغط هو على فكرة اللغة العاطفية أو كما يسميها (language affectif) وفي رأيه أن هناك صراعًا دائمًا بين كلام الأفراد وبين النظام اللغوي الذي لا يمكن أن يرضي الجميع ، فاللغة المنظمة العادية الثقافية تكفي الرغبة في نقل الأفكار وفهمها ، ولكن الكلام من ناحية أخرى يقف في خدمة الحياة العملية ، فأما ما يعبر الكلام عنه فهو الإحساس والرغبة والعمل ، وإنتاج الكلام عاطفي ذاتي في الغالب " (٢) .

وقد قبل جوزيف فندريس (١٨٧٥ ــ ١٩٦٠ م) هذه التفرقة التي ذكرها شارل باللي بين اللغة العقلية واللغة العاطفية ، أو بين اللغة المعينة والكلام ، وقال : " ينحصر الفرق الأساسي بين اللغة الانفعالية واللغة المنطقية في تكوين الجملة ، وهذا الفرق ينبثق جليًا عندما نقارن اللغة المكتوبة باللغة المتكلمة " (٣) .

وممن فرقوا بين الكلام واللغة السير آلان جاردنر (Allan Gardenar) (١٨٧٩ ـ ١٩٦٣م) عضو الأكاديمية البريطانية في كتابه (نظرية الكلام واللغة) ((theory of speech and language)) حيث قال : " فالكلام إذًا نشاط

---

(١) اللغة بين الفرد والمجتمع جسبرسن ص ١٨ .

(٢) مناهج البحث في اللغة ص ٣٧ .

(٣) اللغة ص ١٩١ .

إنساني تثيره عوامل من الخارج هذه العوامل هي نواة الشيء المقصود ويمكن إطلاقه على عمليات النطق التي يقوم بها المتكلم منظورًا إليها من زاوية شبيهة بزاوية السامع ، وخصائص الكلام بهذا المعنى تتلخص في أنه يتصل بظروف خاصة وسامع وشيء مقصود وأنه نتيجة لإرادة المتكلم الذي تبدي أعماله النطقية علامات الكلمات المستعملة وتمنحها حيوية لم تكن لها في الظروف الأخرى

أما اللغة فاصطلاح جمعي تضم في دائرتها وحدات ذهنية يستطيع المتكلم بمساعدتها أن يستعمل علامات الكلمات ، ولكن المعرفة بهذه الوحدات الذهنية ليست بنت اليوم أو الأمس ، بل ترجع إلى أيام الطفولة فمحصولنا من الكلمات يتزايد يومًا بعد يوم ، ويزداد معنى بعض الكلمات سعة عما كان " (١) .

وأيد ستيفن أولمان (١٩١٤ ــ ١٩٧٦م) بقوة فكرة التفريق بين اللغة والكلام ، فالكلام عنده فردي واللغة اجتماعية ، والكلام موجود بالفعل واللغة موجودة بالقوة ، والكلام زائل واللغة دائمة ، وقد اعترف بأن " اللغوي السويسري فرديناند دي سوسير (Ferdinand de Saussure) الرائد الأول الذي وضع مبادئ هذه التفرقة " (٢) ، واعتبر أن هذا التفريق بين اللغة والكلام " يعد حدثًا خطيرًا في تاريخ علم اللغة في القرن العشرين " (٣)

وعرف أولمان اللغة بأنها : " نظام من رموز صوتية مخزونة في أذهان أفراد الجماعة اللغوية " ، فاللغة عنده نظام مركب من مجموعة عناصر وهى الأصوات المفردة التي تتكون منها الكلمات ثم الجمل التي تتكون من كلمتين فأكثر وتفيد فائدة تامة ويمكن السكوت عليها ، هذه الرموز مخزونة في عقل كل فرد من أفراد الجماعة

---

(١) مناهج البحث في اللغة ص ٣٩ .

(٢) دور الكلمة في اللغة ص ٣٦ .

(٣) دور الكلمة في اللغة ص ٣٧ .

اللغوية ، فهى مظهر اجتماعي تنتجه الجماعة اللغوية ويصير موجودًا بالقوة بين أبناء تلك الجماعة اللغوية ، ثم يأتي بعد ذلك يأتي دور الفعل والاستعمال حتى يصير ما هو موجود بالقوة موجودًا بالفعل وهو الكلام الذي عرفه بقوله : " نشاط مترجم لهذه الرموز الموجودة بالقوة إلى رموز فعلية حقيقية " (١) .

فقوله : " نشاط " يعنى عملية الكلام التي يقوم فيها المتكلم بدور إيجابي وهو الإرسال ، ويقوم فيها المستمع بدور سلبي وهو الاستقبال والذي يقوم بدوره إلى ترجمة تلك الرموز إلى معان ذات دلالات معينة متعارف عليها بين أبناء تلك الجماعة اللغوية .

ومن ذلك يتبين أن أولمان فرق بين اللغة والكلام بالفروق الآتية :

١ ــ اللغة رموز والكلام نشاط ، " فالكلام ــ في نظره ــ ما هو إلا وجه من أوجه النشاط الإنساني ، أما اللغة فهى وعاء هذا النشاط وأداته ، أو بعبارة أخرى ، اللغة عبارة عن نظام من الرموز التي يستدعيها حدوث الكلام الفعلي ، ويشترك في هذه العملية كل من المتكلم والسامع " (٢)

٢ ــ اللغة موجودة بالقوة والكلام موجود بالفعل

٣ ــ اللغة جماعية والكلام فردي

٤ ــ اللغة ثابتة والكلام زائل ، يقول : " فالكلام ــ كما يؤخذ من التعريف ــ شيء عابر سريع الزوال ، والحدث اللغوي لا يستغرق أكثر من لحظات ، وهذا يصدق على الرغم من أن وسائل التسجيل الحديثة قد منحته شيئًا من الدوام الذي كان من قبل مقصورًا على الكلمة المكتوبة ، أما اللغة فهى ثابتة ومستقرة نسبيًا إذا قورنت بالكلام

---

(١) دور الكلمة في اللغة ص ٣٧ .

(٢) دور الكلمة في اللغة ص ٣٦ .

، وعلى الرغم من خضوعها للتغيير والتطور فهى تسير في هذا الاتجاه ببطء شديد ، كما أن بعض التغيرات الرئيسية التي تصيب اللغة قد تستغرق أجيالًا بل قرونًا طويلة حتى تنضج وتستقر " [١]

كما نجد اللغوي الإنجليزي ستيفن أولمان يفرق بين اللغة والكلام فيقول : " اللغة عبارة عن نظام من الرموز التي يستدعيها حدوث الكلام الفعلي ، ويشترك في هذه العلمية كل من المتكلم والسامع ، ويشترك فيها الأول بطريق إيجابي ، بوصفه بادئاً ، والثاني بطريق سلبي بوصفه مستقبلاً ، أما الكلام ــ بمعنى القيام بعملية التكلم ــ فيستدعي صور الكلمات والرموز الأخرى التي انطبعت في أذهان كل المتكلمين ، ثم يترجمها إلى أصوات فعلية واضحة ذات مغزى " [٢] .

وتبنى هارولد إدوارد بالمر Hrold E.Palmer(١٨٧٧ ــ ١٩٤٩م) فكرة التفريق بين اللغة والكلام ، وأيدها بقوة ، ودافع عنها بشدة ، فهناك ــ في رأيه ــ نشاط جسمي وعقلي ينقل أفكارًا وعواطف وهو ما يسمى بالكلام ، وهناك مجموعة من العادات والقوانين اللغوية وتخضع للتنظيم من أجل المحافظة على مستوى معين من التفاهم وهو ما يسمى باللغة ، يقول بالمار : " إن ما نسميه لغة هو في الواقع أمر مركب من شيئين ، فلدينا من ناحية نشاط ذهني وعضلي من جانب المتكلم ، ونشاط مماثل من جانب المخاطب ، ولدينا من ناحية أخرى مجموعة من الاصطلاحات اللغوية من مفردات وتراكيب نظمتها وتواضعت عليها جماعة المتكلمين ؛ ليتمكنوا بواسطتها من التفاهم فيما بينهم ، وأول هذين الأمرين هو الكلام ، وثانيهما هو اللغة، وتختلف اللغة عن الكلام كما تختلف حقيقة السفر عن جدول مواعيد القطارات

---

(١) دور الكلمة في اللغة ص ٣٦ و ٣٧ .

(٢) دور الكلمة في اللغة ص ٣٦

والقطار وأشخاص المسافرين" (١)

وهو يرى أن اللغة والكلام ينبثقان من معين واحد وهو اللغة بمعناها العام أو الملكة أو اللغة غير المعينة، وقال :" إن الشيء المركب غير المتجانس الذي نسميه اللغة يشتمل في الحقيقة على ناحيتين :

أولًا : حاصل جمع أحوال النشاط الذهني والعضوي الذي يقوم به شخص حين ينتقل لشخص آخر (بالإشارة أو النطق أو الكتابة) إدراكًا ما (فكرة أو رأيًا أو عاطفة) وهذا هو الكلام .

ثانيًا : حاصل جمع أوضاع متعارف عليها منظمة ومقبولة من الجمهرة الاجتماعية التي تستعمل الناحية الأولى لتضمن الوضوح المتبادل بين أفراد هذه الجمهرة وهذه هى اللغة .

فالناحية الأولى طائفة من النشاطات الشخصية ، والثانية طائفة من أوضاع التعارف " (٢)

ثم دلل على صحة هذه النظرية التي تفرق بين الكلام واللغة بما يلي :

١ ــ الكود التجاري يختلف عن الأعمال التي يستلزمها إرسال الرسائل به

٢ ـ منظمة الإشارات البحرية غير الأعمال التي تستلزمها الإشارة بالأعلام .

٣ ـ الكود الموسيقي من النغمات والسكتات يختلف عن حركات العزف التي يؤديها الموسيقي .

٤ ـ الكود الذي تجده في جدول سير القطارات غير السفر بهذه القطارات .

---

(١) اللغة بين الفرد والمجتمع ص ١٩ ـ ٢٠ .

(٢) وينظر: التفكير اللغوي بين القديم والجديد ص ١٠٤ .

ثم يخلص إلى النتيجة الآتية " كل كود يختلف عن الأعمال التي تتم بحسبه مطابقة لمقتضياته " [١] .

ذهب بعض الباحثين إلى أن نعوم تشومسكي(Avram Noam Chomsky) (١٩٢٨ ــ ...) توافق مع دي سوسير في وجود فرق بين اللغة والكلام إلا أنه أراد أن يتفادى ما أخذ على دي سوسير عندما فرق بين اللغة والكلام فجعل الفرق بين المقدرة أو الكفاءة اللغوية والأداء اللغوي ، ويرى تشومسكي أن العقل الإنساني قادر على الإبداع وإنتاج عدد غير متناه من التراكيب والجمل التي لم يسمعها الإنسان من قبل ولم ينطق بها أحد غيره ، ومن هنا كانت وسائل الاتصال لدى الإنسان غير محدودة بخلاف الكائنات الأخرى التي تتمتع بوسائل محدودة للتواصل فيما بينها . وتعتمد النظرية التوليدية التحويلية التي أرسى دعائمها تشومسكي على دعامتين أساسيتين وهما : الكفاءة اللغوية (competence) ، والأداء الكلامي (performance)

والكفاءة اللغوية معناها : " القدرة على توليد العديد من الجمل استنادًا إلى المعرفة بالقواعد اللغوية " ...

أما الأداء الكلامي فهو : " استعمال اللغة في صورة منطوقة أو مكتوبة وأداء اللغة بطريقة فعلية وعملية ...

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن الكفاءة اللغوية عند تشومسكي يقابلها مصطلح اللغة عند دي سوسير ، والأداء الكلامي عند تشومسكي يقابله الكلام عند دي سوسير[٢] ، يقول د / رمضان عبد التواب : " وقد أفاد تشومسكي من تقسيم دي

---

(١) مناهج البحث في اللغة ص ٤٥ .

(٢) ينظر : الأسلوبية والأسلوب د / عبد السلام المسدي ص ٣٨ ، ووصف اللغة العربية دلاليًا ص ٥٧ .

سوسير السابق للغة إلى لسان (Langue) وكلام (parole) وأطلق على النوع الأول مصطلح الكفاءة (Competence) ، وعلى الثاني مصطلح الأداء (Performance) ويقصد بالكفاءة : ما يكون عند المتكلم باللغة ــ من أبنائها ــ من معرفة حدسية غير واعية بالأصوات والمعاني والنحو ، أما الأداء فهو عبارة عن الممارسة اللغوية الفعلية في الحياة اليومية ، وربما لا تكون صورة صحيحة للكفاءة ؛ لمخالفتها ــ في بعض الحالات ــ القواعد النحوية " (١) .

وقد لاحظ د/ محمود فهمي حجازي أوجه الاتفاق وأوجه الاختلاف بين اللغة والكلام عند دي سوسير من جانب وبين الكفاءة اللغوية والأداء اللغوي عند تشومسكي من جانب آخر ورأى أن الكفاءة والأداء ما هما إلا تطور وتعديل لنظرية اللغة والكلام لدى دي سوسير وقال : " " ويعد التمييز بين الأداء اللغوي والكفاية اللغوية في نظرية اللغة عند شومسكي (Chomsky) تطويرًا لرأي دي سوسير في اللغة والكلام " (٢) .

لكن ليس من الدقة أن نقابل بين مفهومي اللغة والكلام لدى دي سوسير ، ومفهومي الكفاءة والأداء لدى تشومسكي ، فهناك فروق واضحة بينهما ؛ فالكفاءة التواصلية لدى كل متكلم أو مستمع هي القدرة على استعمال اللغة في كل الأحوال الخطابية لشتى الأغراض ، وهى بذلك تتعدى الملكة اللغوية التي تجعل صاحبها قادرًا على التركيب السليم للمفردات من الناحية اللغوية ، كما أن الكفاءة اللغوية تعني

القدرة على إنتاج عدد غير محدود من الجمل التي لم يسمعها الإنسان من قبل ، وهو ما يسمى بالمظهر الإبداعي للغة ، كما تعني القدرة على التمييز بين الجمل

---

(١) المدخل إلى علم اللغة ص ١٩١ .

(٢) مدخل إلى علم اللغة د / محمود فهمي حجازي ص ١٣ .

النحوية والجمل غير النحوية في لغة ما ، أما اللغة فهي نظام من الرموز مخزون في أذهان أفراد الجماعة اللغوية ، ومن ثم اختلف مفهوم الكفاءة عن مفهوم اللغة .

ب ـــ المعارضون لدي سوسير :

عارض دي سوسير كثير من اللغويين الغربيين ، سواء فيما يتعلق بالتفرقة بين اللغة والكلام في ذاتهما أو في بعض الأحكام المتعلقة بهما ، ومن هؤلاء :

١ ـــ بينيديتو كروتشيه :

وقد عارض الفيلسوف الإيطالي بينيديتو كروتشيه (١٨٦٦ ـــ ١٩٥٢م B. Croce) دي سوسير معارضة شديدة ونقد أفكاره نقدًا لاذعًا حيث : " إن مفاهيم (كروتشيه) تبدو متعارضة في جملة نقاط جوهرية مع مفاهيم (سوسير) إذ نجد فيلسوف (نابولي) يعارض أستاذ (مدرسة جنيف) في إنكاره لأي تمييز بين اللغة والكلام ، ويرفض أية هيمنة للأولى على الثاني ، فالنظام لا يسبق التنفيذ ـ كما يرى سوسير ـ وحتى ليس هناك ما يطلق عليه مفهوم النظام ، إن القول بذلك عند كروتشيه مجرد حماقة : أن نتخيل أن الإنسان يتحدث طبقًا للمعجم والقواعد النحوية " (١).

وقد أعجب جون ليونز John Lyons (١٩٣٢ ـ ...) بتفريق دي سوسير بين اللغة والكلام ، لكنه لم يتفق معه في إخراج الكلام من مجال علم اللغة أو من دائرة الدراسة اللغوية ؛ ولذا رأى أن يكون المصطلح الأليق هو النظام اللغوي بدلًا من اللغة ، والسلوك اللغوي بدلًا من الكلام ، يقول جون ليونز : " ونحن في حاجة إلى الحديث قليلًا عن طرفي ثنائية سوسير (اللغة والكلام) أي : بين النظام اللغوي

---

(١) بلاغة الخطاب وعلم النص د / صلاح فضل ص ٣٩ .

والسلوك اللغوي " [١] وقد حاول ليونز بذلك أن يتخلص من المآخذ التي أخذت على دي سوسير في استعمال مصطلحي اللغة والكلام يقول د / سعيد بحيري : " لقد حاول لوينز ـ أيضًا ـ أن يتفادى ما أثاره مصطلحا دي سوسير (اللغة والكلام) ، على الرغم من اتفاقه معه حول القيم اللامحدودة التي تتضمنها مقولاته لبيان حدود الفصل بينهما ، فاستخدم مصطلح (النظام اللغوي) مقابلًا للغة ، و (السلوك اللغوي) مقابلًا للكلام " [٢] .

كما تأثر لويس تروله هيلمسليف (Louis Trolle Hjelmslev) (١٨٩٩ ـ ١٩٦٥ م) بثنائية دي سوسير (اللغة والكلام) ، ولكنه حاول أن يتفادى ما أخذ على دي سوسير في هذه الثنائية واقترح ثنائية أخرى وهى النظام والنص ، وكان جل اهتمامه بالنظام ، فاللغة في وجهة نظره مجموعة من الرموز سواء أكانت تلك الرموز صوتية أو صرفية أو تركيبية (كلمة أو جملة) ، ودور اللغوي هو معرفة النظام الذي تسير عليه تلك الرموز بعيدًا عن العوامل الاجتماعية أو الثقافية أو الأدبية ، " والحق إنه ـ يعني : هيلمسلف ـ لا خلاف في تأثره بثنائيات دي سوسير ، إلا أنه قد أعاد صياغة ثنائياته في إطار هذه النظرة الشكلية المنطقية الجبرية للغة ، إنه يقابل بين النظام والنص في مقابل ثنائية دي سوسير اللغة والكلام " [٣] .

ومن ذلك يتبين أن النظام سابق للنص، فلا يكون النص نصًا إلا إذا كان مبنيًا على نظام لغوي ، ثم يأتي بعد ذلك النص الذي يتكون من عناصر شكلية متعددة ، وبذلك يدخل في دائرة استخدام أو استعمال اللغة وهو ما يطلق عليه الكلام .

---

(١) اللغة وعلم اللغة ص ٥٧ .

(٢) دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة ، د / سعيد حسن بحيري ص ٢٦ .

(٣) علم لغة النص د / سعيد بحيري ص ٤٠ .

ولم يتفق رومان ياكوبسون (Roman Jacobson) (١٨٩٦ ــ ١٩٨٢ م) مع دي سوسير في أن اللغة ينبغي أن تدرس في ذاتها ومن أجل ذاتها بعيدًا عن البيئة والمتكلمين ، وقال : " واللغة طبقًا لكتاب المحاضرات " يجب أن تُدْرَس في ذاتها " ولا تتطلب وسطًا مسبقًا من طرف المتكلمين ، إن التقدم الجديد والسريع في اللسانيات التطبيقية مع موضوعات من قبيل تنظيم اللغة وإدارتها ، وتعليم اللغة ، وهندسة التواصل ، وما إلى ذلك ، إنما هو فرع طبيعي ومتوقع للفكر اللساني الحديث الموجه إلى غاية ما ، ولكنه يبقى غريبًا على نظرة سوسير للعلم اللساني ، وعلى الأيديولوجيا المهيمنة في عصره " [١] .

ولم يسلم ياكبسون بأن الكلام عمل فردي بل إن الكلام يقتضي ويستلزم متكلمًا وسامعًا معًا، يقول : " إن تحديد سوسير للغة بوصفها " الجزء الاجتماعي من اللغة والخارجي بالنسبة للأفراد بمقابل الكلام بوصفه مجرد فعل فردي ، لا يعني بوجود شفرة شخصية تزيل الانقطاع الزمني لأحداث الكلام المفردة ، وتعزز الحفاظ على الفرد ، وعلى دوام أناه وهويتها ، ولا يأخذ سوسير بعين الاعتبار طبيعة دور الكلام الاجتماعية ، والمكيفة تباديليًا التي تدل ضمنًا على اشتراك فردين في الأقل " [٢] .

وقد اعترض يسبرسن (١٨٦٠ ــ ١٩٤٣م) على حثيات التفريق بين اللغة والكلام التي ذكرها دي سوسير فقال : " وأما قوله بأن الكلام من نتاج الأفراد بينما أن اللغة من نتاج المجتمع فقول مردود ، حيث إن الجماعة ليست سوى مجموعة من الأفراد ، ولا يمكن بحال أن نعتبرها شيئًا آخر ، ودي سوسير هنا لم يأت بجديد ــ أيضًا ــ فهو هنا كذلك ناقل عن بعض علماء الاجتماع الألمان الذين قالوا بوجود الجماعة وجودًا يختلف عن وجود الأفراد وبأنه إذا صح أن يقال إن للفرد عقلًا فرديًا

---

(١) الاتجاهات الأساسية في علم اللغة تأليف / رومان ياكوبسون ص ٣٣ .

(٢) السابق ص ٣٢ .

فإن للجماعة كذلك عقلًا جمعيًا ، والحق أن العقل خاصة توجد للفرد لا للجماعة ، وأن ما نراه من اختلاف بين تصرف الفرد حين يكون وحيدًا ، وبين تصرفه عندما يكون بين عدد عديد من الأفراد هو اختلاف في سلوك الفرد ناتج عن اختلاف الظروف التي توجد حوله ، كذلك لا يعدو الاتفاق في العاطفة أو الرأي في جماعة من الجماعات أن يكون مجرد اتفاق في حكم يصدر من عدة عقول فردية قد تأثرت بظروف ودوافع متشابهة "(١) .

ومن ذلك يتبين أن يسبرسن يرى أن اللغة يمكن أن تكون فردية ، ولا يلزم من انتشارها بين مجموعة أفراد أنها عمل جمعي ؛ لأن الفرد يستعمل اللغة ليفهم الآخرين ما بداخله ، وكذلك يفعل الآخرون ، فتعدد استعمالات الأفراد لا يعني أنها كل في واحد يقول : " جوهر اللغة نشاط إنساني ، نشاط من قبل الفرد ليجعل نفسه مفهومًا من الآخرين ، ونشاط من قبل الآخرين ليفهموا ما يدور في عقل الفرد "(٢) .

وإذا سلمنا جدلًا بفردية الكلام وجماعية اللغة فلا ينفي ذلك أن يكون الكلام مشتملًا على ما تشتمل عليه اللغة من نظام ، ولا يمنع من خضوعه لما يمكن أن تخضع له اللغة من مبادئ وقواعد ، يقول يسبرسن : " وإذا صح ما نقرره أن الفرد موجود بذاته ، مستقل بكيانه ، فإن لغته موجودة كذلك بذاتها ، وإذا أن الفرد ــ أيضًا ــ يتعاون ويتأثر بالجماعة التي يعيش فيها ؛ فإن لغته كذلك تتأثر بالاتجاهات الجماعية اللغوية ، أو بعبارة أخرى فإنه لو سلمنا بوجود الفرد والمجتمع باعتبار كل منهما وحدة مستقلة ، فإن من الممكن من الجانب اللغوي ــ أيضًا ــ أن نتكلم عن اللغة الفردية واللغة الجماعية ، وكلا العنصرين يؤثر ويتأثر بالعنصر الآخر "(٣) .

---

(١) اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٢١ .

(٢) النحو والدلالة د / حماسة ص٣٩ .

(٣) اللغة بين الفرد والمجتمع ص٥ ، ودراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة ، تأليف د / سعيد حسن بحيري ص ٢١ .

وقال : " وكذلك نأخذ على دي سوسير ما يقوله من أن اللغة الميتة يمكن أن تدرس باعتبارها لغة ، ولا يمكن أن تدرس باعتبارها كلامًا ، وهو هنا يغالي في تفريقه بين اللغة الكلام ، والواقع أن الفرق ليس جوهريًا بين من يتكلم لغة ميتة وبين من يتكلم لغة حية ، فالعمليات النفسية في كل من الحالتين متماثلة ، فهناك أولًا العامل المثير وهو الدافع للكلام ، وهناك نشاط الأعضاء الصوتية نشاطًا ذا دلالة ثم هناك الطرف الآخر للكلام ـ أعني السامع ـ الموجود بالفعل عندما يوجد سامع يفهم اللغة الميتة التي يستعملها المتكلم أو الموجود بالفرض عندما يكون الشخص "(١).

وبناء على ما سبق ـ من وجهة نظر يسبرسن ـ يمكن القول بأن الفرد يمكن أن يغير في اللغة سواء بالابتكار ، أو بالأخطاء التي يمكن أن تؤخذ عنه وتنتشر ، يقول : " ثم إننا نرى طابع المغالاة ـ أيضًا ـ فيما يقرره دي سوسير من أن الفرد لا يستطيع التغيير أو التبديل في اللغة ، وأن الجماعة هي التي تقوم بذلك ، والواقع أن الفرد هو مصدر التغيير والتبديل في اللغة ، فمن الممكن أن يبتكر الفرد لفظًا من الألفاظ ـ كما يحدث في المجمع اللغوي ـ أو أن يرتكب خطأ في نطق كلمة أو تركيب جملة ، ثم يؤخذ عنه ويشيع ، وليس اشتراط شيوع الابتكار الفردي في اللغة مغيرًا للأمر الواقع ، الذي هو أن الفرد ـ وليست الجماعة ـ هو السبب في التغيير اللغوي " (٢) .

وقال : " ولو سلمنا لدي سوسير بأن الفرد هو المتصرف في الكلام ، فإنه يجب أن نقيد رأيه بعض التقييد ، حيث إن هناك حدًا لحرية الفرد في هذا التصرف لو تجاوزه لما صار كلامه كلامًا على الإطلاق ، إذ إن تصرف الفرد في الكلام مشروط بألا يتجاوز حدود الإفهام ، والإفهام أمر تشترك فيه الجماعة وليس أمرًا خاصًا بالفرد

---

(١) اللغة بين الفرد والمجتمع ص٢٣ .

(٢) اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٢٣ .

وحده " [١] .

ودي سوسير كان يرى أن الكلام نشاط فردي ، أما اللغة فهي أمر جماعي ، فهي مجموعة من النظم تختزن في الذهن الجماعي ، تربط بينها مجموعة من العلاقات الموحدة لدى جميع الأفراد ، وقد اتفق يسبرسن مع دي سوسير في أن اللغة خاصة بالجماعة فقال : " واللغة موجودة قبل وجود الفرد ؛ لأنها خاصة بالجماعة ، وهذه لا شك موجودة قبل وجود أي فرد من أفرادها ، والفرد يولد بلا لغة ، ولكنه يرث اللغة باعتبارها تراثًا جماعيًا ، وليس له في الميراث أي نوع من الاختيار ، فهو لا يملك التدخل في اختيار مفرداتها ، أو تنظيم قواعدها ، بل يرث كل ذلك على الوضع الذي يجده عليه عند ميلاده "[٢] .

لكن هذا النقد الشديد الذي وجهه يسبرسن لأفكار دي سوسير ليست موضع إجماع بين الدارسين بل منها ما يقبل النقاش ، أو القبول والرفض ، وكان جل اهتمامه أن يخرج من هذه المقابلة بين اللغة والكلام ، واقتراح مقابلة أخرى تتسم بالمنطقية ولا تكتنفها المآخذ التي وجدها في المقابلة بين اللغة والكلام وخلص إلى أنه يمكن تقسيم النشاط اللغوي إلى لغة الفرد ولغة الجماعة ، وقال : " فإن من الممكن من الجانب اللغوي ـ أيضًا ـ أن نتكلم عن اللغة الفردية واللغة الجماعية ، وكلا العنصرين يؤثر ويتأثر بالعنصر الآخر "[٣] .

لكن هذه الثنائية لا تتفق وفكرة التجرد في اللغة يقول د / سعيد بحيري : بيد أنه ـ

---

(١) السابق ص ٢٣ .

(٢) اللغة بين الفرد والمجتمع ص ١٥ ، ودراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة ، تأليف د / سعيد حسن بحيري ص ٢١ .

(٣) اللغة بين الفرد والمجتمع ص٥ ، ودراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة ، تأليف د / سعيد حسن بحيري ص ٢١ .

أي : يسبرسن ـ لم يوفق في فهم فكرة التجريد في اللغة ، أعني : كونها نظامًا من رموز وصيغ وقواعد ليس لها تحقيق فعلي ، ولكنها مختزنة في عقول الأفراد ، وعلى هذا قيل : إنها موجودة بالقوة (أي : كامنة) على حين أن الكلام موجود بالفعل (أي : حادث) " (١) .

وقد وضح يسبرسن كلام دي سوسير فقال : " والفرق بين اللغة والكلام هو أن اللغة مجموعة محددة من المفردات والتراكيب والتعبيرات ، توجد في كتب القواعد والقواميس مدونة محفوظة ، أما الكلام فهو نشاط فردي قد يختلف من فرد إلى آخر من أبناء الجماعة اللغوية الواحدة ، ... ومؤدى كلام دي سوسير أنه من الممكن أن ندرس اللغة وحدها بعيدة عن الكلام ؛ لأنها ليست سوى مجموعة من القواعد والمفردات المدونة " (٢) .

كما لم تقبل الباحثة بريجيته بارتشت قول دي سوسير بأن اللغة نظام من علامات عناصره مترابطة ولذلك هي التي تخضع للدراسة في مجال علم اللغة ، أما الكلام فليس له نظام ؛ ولذا لا يدخل في مجال علم اللغة وإن دخل فهو يدخل تحت دراسة ما يمكن أن يسمى علم لغة الكلام .

وأشارت بارتشت إلى أن الكلام لا يخلو من نظام وإلا لما أفاد ولما قبله السامع ، وقالت : " ليست اللغة وحدها نظامًا ، ففي حال المتكلم المفرد ، والوقعة اللغوية المعينة ـ أيضًا ـ يجب أن يوجد التزام بنظام ، وهذه الأنظمة يجب أن تكون متساوية تقريبًا لدى المتكلمين أو المستمعين الفرادى حين تقوم اللغة بوظيفة وسيلة الإفهام ، ويعني ذلك أن الموضوع الأساسي لدراسات علم اللغة هو اللغة بمعنى اللغة المعينة ، وأنها لا يجوز أن تكون الموضوع الوحيد للدراسة ، فوقائع الكلام ــ أيضًا ـ يجب أن

---

(١) دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة ، تأليف د / سعيد حسن بحيري ص ٢٤

(٢) اللغة بين الفرد والمجتمع ص ١٦ .

تبحث ، وفضلًا عن ذلك لا توجد اللغة في ذاتها ، بل لا يوجد دائمًا إلا الكلام المحدد، ويمكن بطريق دراسته فقط النفاذ إلى اللغة " [١] .

وقد أشار د / كمال بشر إلى أن المدرسة الإنجليزية لا تفرق بين اللغة والكلام ، وقال : " ولكن أكثر اللغويين المعاصرين ـ وفي مقدمتهم أتباع المدرسة الإنجليزية الحديثة بريادة أستاذنا فيرث ـ لا يرون هذا الرأي ، ولا يأخذون به ، فالتفرقة بين اللغة (أي : اللغة المعينة) والكلام عندهم ليس له ما يبرره من حيث المنطق والواقع ، إذ هما جانبان لشيء واحد ، أو هما مصطلحان يطلقان على مسمى واحد، وكل منهما اجتماعي وفردي ، وكل منهما عقلي ومادي"[٢] ، وقد ساق د / كمال بشر بعض الحجج والأدلة التي ثبت أنه لا يمكن الفصل بينهما ، وقد بينت ذلك في المبحث السابق .

(١) مناهج علم اللغة ص ١٢٤ .

(٢) ينظر : دور الكلمة في اللغة ص ٤١.

الخاتمــة

أحمد الله تعالى على نعمائه ، وأشكره على وافر عطائه ، وسابغ آلائه ، وأصلي وأسلم على النبي المصطفى ، والرسول المجتبى ، وعلى آله وصحبه ، ومن بسنته اقتدى ، وبهديه اقتفى .

وبعد :

فلا جدال في أن اللغة والكلام بينهما أواصر مشتركة ، وصلات متداخلة ، وعلاقات متشابكة ، غير أن علماء اللغة تعددت وجهات النظر لديهم فمنهم من يرى أن اللغة والكلام لا يمكن الفصل بينهما فاللغة هي الكلام ، وأن الفرق بينهما لا يعدو أن يكون شكليًا وليس جوهريًا ، وكلاهما وجهان لعملة واحدة .

ومن اللغويين من يرى أنه من الخلط أو الخطأ أن ننظر إلى اللغة والكلام على أنهما شيء واحد ، وإنما هما شيئان متمايزان ، ولكل واحد منهما سماته وخصائصه المستقلة ، لكن تنوعت وجهات النظر في تلك الفروق بين اللغة والكلام ، **وقد أسفرت هذه الدراسة عن النتائج الآتية** :

أولًا : من اللغويين من يرى أن اللغة هي الألفاظ الموضوعة للمعاني وهى الموجودة في معجمات اللغة ، أما الكلام فهو ما تركب من كلمتين فأكثر ليفيد معنى يحسن السكوت عليه ، فهو يختص بالكلمات المركبة والمفيدة ، وهذه النظرة يفهم منها أن اللغة شيء كلي ولا يمكن أن تنسب لفرد بل هي مجموع ما تكلم به أبناء اللغة الفصحاء ، وهو رأي قال به المتقدمون من اللغويين العرب ، وهى نظرة قريبة من نظرة المحدثين من اللغويين العرب والغربيين ، بيد أن الفرق بين رأي القدماء ورأي المحدثين هو أن المتقدمين يرون اللغة على أنها الألفاظ والمفردات المجموعة في معاجم اللغة ، أما المحدثون فيرون اللغة على أنها نظام متكامل يشمل المفردات والقواعد التي تركب على أساسها الأصوات والمفردات والجمل ، وهى شيء مجرد

موجود في العقل الجمعي ـ إن صح هذا التعبير ـ بين أبناء الجماعة اللغوية ، فاللغة هي مجموعة الأنظمة التي تربط بينها علاقات وهى موجودة في أذهان المجموعة اللغوية ولا يستقل شخص معين بها بل هي موجودة في مجموع الأشخاص ، أما الكلام فهو المنطوق والملموس من تلك الأنظمة والذي يظهر على شكل جمل وعبارات يقوم بأدائها الإنسان لتحقيق بعض الأغراض أو الأهداف ، فاللغة ـ على هذا الرأي ـ جماعية والكلام فردي ، واللغة شيء مجرد والكلام شيء ملموس ، واللغة توجد في الأذهان والكلام يوجد في النطق والأداء ، لكن هذه الفروق بين اللغة والكلام لم تكن موضع اتفاق بين الدارسين والباحثين .

ثانياً : تطور مدلول كلمة لغة عند اللغويين العرب القدامى ، ففي البداية كانت تطلق على اللهجة ، ثم أطلقت على الألفاظ الموضوعة للمعاني ، ثم أطلقت على جمع وتأليف ألفاظ اللغة ، ومن هنا جاء التفريق بين مصطلحي النحوي واللغوي ، فالنحوي هو الذي يعنى بقواعد اللغة ، واللغوي هو الذي يحصل أكبر قدر ممكن من اللغة ، أو الذي يقوم بجمع ألفاظ اللغة سواء أحفظها في ذاكرته أم سجلها في كتاب (معجم) مرتبة ومشروحة ، وكان ذلك هو الكثير الغالب في استعمالات اللغويين ، إلى أن جاء أبو الفتح ابن جني وأضاف عنصرين مهمين في تعريف اللغة وهما العنصر الاجتماعي عندما قال : يعبر بها كل قوم ، والآخر : الإشارة إلى وظائف اللغة وهى التعبير عن الأغراض والحاجات فأضاف قوله : عن أغراضهم .

ثالثاً : لم يكن المتقدمون من اللغويين العرب ينظرون إلى اللغة على أنها نظام من الرموز ، أو أنها مجموعة أنظمة متشابكة ومتداخلة (النظام الصوتي والنظام الصرفي والنظام النحوي والنظام الدلالي) ، هذه الأنظمة يجمعها نظام كلي واحد تتحقق فيه الوحدة والمنطقية ويتسم بالتماسك والترابط ، وإنما كانوا يرون اللغة هي تلك الألفاظ الموضوعة للمعاني ، وهى مختزنة بصورة جزئية في عقل من يتكلم بتلك اللغة ويستمد منها ما يلبي احتياجاته من تلك الألفاظ للتعبير عن غرض من

الأغراض ، وهى مختزنة بصورة كلية في مجموع عقول أبناء تلك اللغة ، وتظهر على أرض الواقع في صورة معجم يضم أكثر أو معظم هذه الألفاظ مرتبة ومشرحة ، أما الكلام عندهم فهو تركيب ألفاظ اللغة في صورة جمل وعبارات للتعبير عن غرض من الأغراض ، وبهذه النظرة للكلام يتبين أن المتقدمين من اللغويين العرب كانوا ينسبون العلاقات والنظام للكلام وليس للغة .

رابعاً : لم تخل نظرة دي سوسير للفرق بين اللغة والكلام من النقد والتفنيد ، وهو ما جعل هيلمسليف (Louis Hjelmslev) (١٩٦٥ م) يقترح ثنائية أخرى وهى النظام (system) مقابلًا للغة ، والنص (text) مقابلًا للكلام ، واقترح لوينز (النظام اللغوي) مقابلًا للغة ، و(السلوك اللغوي) مقابلًا للكلام ، واقترح غستاف قيوم (Gustave Guillaume) (ت ١٩٦٠ م) اللغة (langue) والخطاب (discourse) مقابلًا للكلام ، واقترح نعوم تشومسكي الكفاءة التواصلية (competence) مقابلًا للغة ، والأداء (performance) مقابلًا للكلام ، واقترح جاكبسون وأندريه مارتينيه النمط (code) مقابلًا للغة ، و الرسالة (messag) مقابلًا للكلام ، ومن ذلك يتبين أن ما طرحه دي سوسير من ثنائية اللغة والكلام أحدث ثورة في مجال علم اللغة ، وقد أدلى جمع غفير من اللغويين بدلوهم في تأييد أو تعديل هذه التفرقة بين اللغة والكلام .

خامساً : يتلخص اعتراض بعض اللغويين على دي سوسير في أنه ينظر إلى اللغة على أنها ذات دور سلبي وهى كونها وحدات مختزنة في عقول المتكلمين بها ، وهم يرون أن اللغة لها دور إيجابي يتمثل في القدرة على توليد العبارات وإنتاج الجمل وهو ما يسمى بالمظهر الإبداعي للغة .

سادساً : ذهب دي سوسير إلى أن الكلام لا يمكن أن يدرس بصفة مستقلة ؛ لأنه أمر فردي ويخضع لرغبات المتكلم وقصده ، ويصعب وضع نظام كامل وشامل لكل هذه الأداءات الفردية ، فالكلام في نظره غير متجانس ومتغير ، واللغة هي التي

تدخل في مجال دراسة علم اللغة لأنها نظلم له قوانين محددة ، وقواعد كلية ، وإذا كان لا بد من دراسة الكلام فيدرس دراسة مستقلة منعزلة عن علم اللغة ، وفي هذه الحالة يطلق على تلك الدراسة مصطلح (علم لغة الكلام) للتمييز بينه وبين دراسة اللغة لذلتها ومن أجل ذاتها .

سابعاً : فرق بعض المحدثين بين علوم اللغة المتمثلة في النحو والصرف والعروض وبين علم اللغة أو فقه اللغة ، ويرون أن علوم اللغة هي علوم تنظيمية تعتمد على القواعد والقوانين ، وعلم اللغة أو فقه اللغة من العلوم التفسيرية الفلسفية ، فعلوم اللغة هي العلوم الموازين ، الحاوية للقواعد والقوانين التي تبين الخطأ من الصواب ، أما علم اللغة وفقه اللغة فهما من المباحث التفسيرية الفلسفية الوصفية ، التي تنبني في الأغلب على دراسة العلاقة القائمة بين الفكر والتعبير ، ودراسة التطور التاريخي للغة .

المصـــــادر والمراجـــع

١ ــ القرآن الكريم جل من أنزله .

٢ــ ارتشاف الضرب من لسان العرب لأبي حيان الأندلسي ، تحقيق د / رجب عثمان محمد ، مراجعة د / رمضان عبد التواب ، ط / الخانجي بالقاهرة ، سنة ١٤١٨ هـ ــ ١٩٩٨ م .

٣ ــ أسرار البلاغة تأليف الشيخ الإمام / أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ، تحقيق أبي فهر محمود محمد شاكر ، ط / دار المدني بجدة .

٤ ــ أسس علم اللغة ، تأليف / ماريو باي ، ترجمة وتعليق د / أحمد مختار عمر ، ط / عالم الكتاب بالقاهرة ، سنة ١٩٨٣ م .

٥ ــ الأسلوبية والأسلوب د / عبد السلام المسدي ، ط / الدار العربية للكتاب مكتبة لسان العرب ، طبعة ثالثة سنة ١٩٨٢ م .

٦ ــ البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بأبى حيان الأندلسى ، تحقيق / عادل أحمد عبد الموجود وآخرين ، ط / دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان سنة ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م .

٧ ــ بلاغة الخطاب وعلم النص د / صلاح فضل ، ط / سلسلة عالم المعرفة بدولة الكويت ، سنة ١٩٩٢ م .

٨ ــ البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تح / عبد السلام محمد هارون ، ط / مكتبة الخانجي بالقاهرة سنة ١٤١٨ هـ ــ ١٩٩٨ م .

٩ ــ تاج العروس من جواهر القاموس للسيد / محمد مرتضى الحسيني الزَّبيدي ، تحقيق / عبد الستار أحمد فراج ، ط / حكومة الكويت ، سنة ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥م .

١٠ ــ التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل لأبي حيان الأندلسي ، تحقيق د / حسن هنداوي ، ط / دار القلم بدمشق .

١١ ــ التفكير اللساني في الحضارة العربية تأليف د / عبد السلام المسدي ، ط / الدار العربية للكتاب ، سنة ١٩٨٦ م .

١٢ ــ التفكير اللغوي بين القديم والجديد د / كمال بشر ، ط / دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع سنة ٢٠٠٥ م .

١٣ ــ تهذيب اللغة لأبى منصور محمد بن أحمد الأزهـــرى ، حققه / عبد السلام محمد هارون وآخرين ، ط / الدار المصرية للتأليف والترجمة .

١٤ ــ توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك للمرادي المعروف بابن أم قاسم ، تحقيق د / عبد الرحمن علي سليمان ، ط / دار الفكر العربي بالقاهرة ، سنة ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م .

١٥ ــ حاشية السجاعي على قطر الندى وبل الصدى للعلامة أحمد بن أحمد السجاعي ، ط / مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٣٥٨ هـ ـ ١٩٣٩ م .

١٦ ــ الخصائص لأبى الفتح عثمان بن جنى ، تحقيق / محمد على النجار ، ط / المكتبة العلمية .

١٧ ــ دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة ، تأليف د / سعيد حسن بحيري ، ط / مكتبة الآداب بالقاهرة سنة ١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥ م .

١٨ ــ دلائل الإعجاز للإمام / أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ، تحقيق / محمود محمد شاكر ، ط / مكتبة الخانجي بالقاهرة .

١٩ ــ دور الكلمة في اللغة تأليف / ستيفن أولمان ، ترجمة د/ كمال بشر ، ط / دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة الطبعة الثانية عشرة .

٢٠ ــ ديوان ذي الرمة ، شرحه / أحمد حسن بسج ، ط / دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥ م .

٢١ ــ ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق / محمد عبده عزام ، ط /

دار المعارف بالقاهرة الطبعة الخامسة .

٢٢ ــ ديوان عنترة بن شداد بن معاوية العبسي ، ط / مطبعة الآداب ــ بيروت سنة ١٩٨٣ م .

٢٣ ــ سر الفصاحة لأبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي ، ط / دار الكتب العلمية بيروت ــ لبنان سنة ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م .

٢٤ ــ سوسير رائد علم اللغة ، تأليف د / محمد حسن عبد العزيز ، ط / دار الفكر العربي بالقاهرة من دون تاريخ .

٢٥ ــ سيكلوجية اللغة والمرض العقلي تحرير د / جمعة سيد يوسف ، ط / عالم المعرفة ، سنة ١٩٩٠ م .

٢٦ ــ شرح التسهيل تأليف / جمال الدين محمد بن عبد الله الطائي المعروف بابن مالك ، تح / عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي المختون، ط / دار هجر للطباعة والنشر سنة ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م .

٢٧ ــ شرح ديوان إبراهيم بن المهدي العباسي ، تحقيق / أنطوان القوال ، ط / دار الفكر العربي للطباعة والنشر ببيروت ، سنة ٢٠٠٣ م .

٢٨ ــ شرح شافية ابن الحاجب تأليف الشيخ / رضي الدين الإستراباذي ، تح / محمد نور الحسن وآخرين ، ط / دار الكتب العلمية بيروت ــ لبنان سنة ١٤٠٢ هـ ــ ١٩٨٢ م .

٢٩ ــ شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب للإمام / أبي محمد جمال الدين بن يوسف المعروف بابن هشام المصري ، تحقيق / محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط / دار الكوخ للطباعة والنشر بطهران .

٣٠ ـ شرح شذور الذهب تأليف / محمد عبد المنعم الجوجري ، دراسة وتحقيق د / نواف بن جزاء الحارثي ، ط / الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة مكتبة الملك فهد الوطنية ، سنة ١٤٢٤ هـ ـ ٢٠٠٤ م .

٣١ ــ شرح المفصل للإمام موفق الدين يعيش بن على بن يعيش ، ط / مكتبة المتنبي بالقاهرة .

٣٢ ـ شعر الأخطل أبي مالك غياث بن غوث التغلبي صنعة السكري روايته عن أبي جعفر محمد بن حبيب ، تحقيق / فخر الدين قباوة ط / دمشق : دار الفكر سنة ١٩٩٦ م .

٣٣ ـ الصاحبى فى فقه العربية ومسائلها وسنن العرب فى كلامها لابن فارس ، تحقيق د / عمر فاروق الطباع ، ط : مكتبة المعارف . بيروت ، سنة : ١٤١٤هـ . ١٩٩٣م .

٣٤ ــ صحيح البخاري للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ط / دار ابن كثير بيروت سنة ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

٣٥ ــ صحيح مسلم المسمى المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ للإمام الحافظ أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، تح / أبي قتيبة نظر محمد الفاريابي ، ط / دار طيبة للنشر والتوزيع بالرياض سنة ١٤٢٧ هـ ـ ٢٠٠٦ م .

٣٦ ــ علم فقه اللغة العربية أصالته ومسائله ، تأليف د / محمد حسن حسن جبل ، ط / مكتبة الآداب ، سنة ١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥ م .

٣٧ ـ علم اللغة العام تأليف / فردينان دي سوسور ، ترجمة د / يوئيل يوسف عزيز ، مراجعة د / مالك يوسف المطلبي ، ط / دار آفاق عربية بغداد سنة ١٩٨٥ م .

٣٨ ـ علم اللغة العربية مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية ، د /

محمود فهمي حجازي ، ط / مكتبة غريب .

٣٩ ــ علم اللغة مقدمة للقارئ العربي د / محمود السعران ، ط / دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت ـ لبنان .

٤٠ ــ علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات تأليف د / سعيد حسن بحيري ، ط / مؤسسة المختار للنشر والتوزيع سنة ٢٠٠٣ م .

٤١ ــ فصول فى فقه اللغة د / رمضان عبد التواب ، ط / مكتبة الخانجى بالقاهرة

٤٢ ــ فقه اللغة العربية وخصائصها ، تأليف د/ إميل بديع يعقوب ، ط / دار العلم للملايين ، سنة ١٩٨٦ م .

٤٣ ــ فقه اللغة في الكتب العربية تأليف د / عبده الراجحي ، ط / دار النهضة العربية بيروت ـ لبنان .

٤٤ ــ قواعد المنهج في علم الاجتماع ، تأليف / إميل دور كايم ، ترجمة محمود قاسم والسيد محمد بدوي، ط / دار المعرفة الجامعية ــ الإسكندرية ، سنة ١٩٨٨م .

٤٥ ــ فقه اللغة وعلم اللغة نصوص ودراسات ، تأليف د / محمود سليمان ياقوت ، ط / دار المعرفة الجامعية ـ الإسكندرية سنة ١٩٩٥ م .

٤٦ ــ كتاب سيبويه لأبى بشر عمرو بن قنبر المعروف بـ(سيبويه) ، تحقيق/ عبد السلام محمد هارون ، ط / مكتبة الخانجى بالقاهرة ، الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .

٤٧ ــ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ، تحقيق / عبد السلام شاهين ، ط / دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٤٨ ــ لسان العرب للإمام / أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المعروف بابن منظور ، ط / دار صادر بيروت .

٤٩ ــ اللسان والإنسان مدخل إلى معرفة اللغة د / حسن ظاظا ، ط / دار القلم بدمشق الطبعة الثانية سنة ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م .

٥٠ ــ اللغة لجوزيف فندريس، تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، ط / مكتبة الأنجلو المصرية .

٥١ ــ اللغة العربية معناها ومبناها د / تمام حسان ، ط / الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة / ١٩٧٩م

٥٢ ــ اللهجات العربية نشأة وتطوراً د / عبد الغفار حامد هلال ، ط : دار الفكر العربى ، سنة ١٤١٨هـ ١٩٩٨م .

٥٣ ــ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير، تح / أحمد الحوفي وبدوي طبانة ، ط / دار نهضة مصر للطبع والنشر بالقاهرة .

٥٤ ــ مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني ، تح / محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط/ مطبعة السنة المحمدية سنة ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥م .

٥٥ ــ مجموعة الشافية من علمي الصرف والخط للعلامة الجاربردي ، ط / عالم الكتب .

٥٦ ــ المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، تأليف / علي بن إسماعيل بن سيده ، تح / محمد علي النجار ، ط / معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية سنة ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣م.

٥٧ ـ مدخل إلى علم اللغة ، تأليف د / محمد حسن عبد العزيز ، ط / دار الوفاء للطباعة ، سنة ١٩٨٢ م .

٥٨ ــ المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ، د / رمضان عبد التواب ، ط / مكتبة الخانجي بالقاهرة سنة ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م .

٥٩ ــ المزهر في علوم اللغة وأنواعها للعلامة / عبد الرحمن جلال الدين السيوطي

، تح / محمد أحمد جاد المولى بك ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوي ،ط / مكتبة دار التراث بالقاهرة .

٦٠ ــ المصباح المنير للعلامة / أحمد بن محمد بن علي الفيومي ، ط / مكتبة لبنان ناشرون سنة ٢٠٠١ م .

٦١ ـ معجم علم اللغة النظري ، وضع د / محمد علي الخولي ، ط / مكتبة لبنان .

٦٢ ــ المغني في أبواب التوحيد والعدل للقاضي أبي الحسن عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الأسدآبادي الجزء السابع (خلق القرآن) ، تحقيق / إبراهيم الأبياري ، ط / القاهرة ، سنة ١٩٦١ م .

٦٣ ــ مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير للإمام / فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الرازي الشافعي ، ط / دار الغد العربي ، سنة ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م .

٦٤ ــ مفردات ألفاظ القرآن للعلامة / الراغب الأصفهاني ، تحقيق / نديم مرعشلي ، ط / دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ــ لبنان .

٦٥ ــ المفصل في علم العربية تأليف / أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، تحقيق د / فخر صالح قدارة ، ط / دار عمار للنشر والتوزيع بالأردن سنة ١٤٢٥ هـ ــ ٢٠٠٤ م .

٦٦ ــ مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس ، تح / عبد السلام محمد هارون ، ط / دار الفكر للطباعة والنشر سنة ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م .

٦٧ ــ مقدمة ابن خلدون للعلامة / ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، تحقيق / عبد الله محمد الدرويش ط / دار يعرب ـ دمشق سنة ١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٤ م .

٦٨ ــ مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى نعوم تشومسكي تأليف / بريجيته بارتشت ، ترجمة د / سعيد حسن بحيري ، ط / مؤسسة المختار للنشر والتوزيع بالقاهرة ، سنة ١٤٣١ هـ ـ ٢٠١٠ م .

٦٩ ــ اللهجات العربية نشأة وتطوراً د / عبد الغفار حامد هلال ، ط : دار الفكر العربى ، سنة ١٤١٨هـ ١٩٩٨م .

٧٠ ــ مناهج البحث في اللغة د/ تمام حسان ، ط/ مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٩٠م .

٧١ ــ موجز تاريخ علم اللغة في الغرب ، تأليف / ر . هـ . روبنز ، ترجمة د / أحمد عوض ، ط / سلسلة عالم المعرفة بدولة الكويت سنة ١٩٩٧ م .

٧٢ ـــ نظريات في اللغة تأليف / أنيس فريحة ط / دار الكتاب اللبناني ـ بيروت سنة ١٩٧٣ م .

٧٣ ـ نهاية الإقدام في علم الكلام تأليف / محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، صححه / ألفريد جيوم ط / بغداد (د . ت) .

٧٤ ــ وصف اللغة العربية دلاليًا في ضوء مفهوم الدلالة المركزية دراسة حول المعنى وظلال المعنى محمد محمد يونس علي، ط / منشورات جامعة الفاتح سنة ١٩٩٣ م .

٧٥ ــ الوظائف الدلالية للجملة العربية دراسة لعلاقات العمل النحوي بين النظرية والتطبيق تأليف د / محمد رزق شعير ، ط / مكتبة الآداب بالقاهرة ، سنة ١٤٢٨ هـ ـ ٢٠٠٧ .